

کتابخانه ثقافیه

الزهاوی

شاعر الحرية

۱۸۶۳ — ۱۹۳۶

بقلم

انور الجندی

كتب ثقافية
الكتاب ٣٨

الزهاوي

شاعر الحرية

١٨٦٣ — ١٩٢٦

بقلم
انور الجندی

تصدير

منذ ربع قرن خلف جميل صدقي الزهاوى دنيانا . وقد
جاوز السبعين فما ذكره خلال هذه التاريخ الطويل الذى أوشك
أن يكمل ربع قرن من الزمان ذاكرة الا بضع محاضرات ألقيت
فى معهد من المعاهد العالية وفصل أو فصلين فى مجلة هنا
أو هناك . وإذا كان الزهاوى قد لقي الاغضاء من الرجعيين
أو الجامدين فلماذا نسيه المجددون وحملة ألوية الفكر الحس
الناهض . وإذا كان أبناء عصره وجيله قد غصوا من قدره
فما باله اليوم وقد ظهر جيل جديد فى العالم العربى يؤمن
بتقدير الاحرار من رجال الفكر وحملة المشاعل فى طريق
التجديد والبعث . هؤلاء الاحرار الذين اذا ذكروا كان جميل
صدقي الزهاوى - بلا جمالة أو مبالغة - من أوائلهم وروادهم
فهو شاعر الحرية الذى احتمل فى سبيل دعوته عنتا شديدا
وهجوما عنيفا . وهجاء قاسيا . وإذا ذكر شعراء عصره فى
مجال التجديد والجرأة والاندفاع نحو أهداف الحرية
والتجديد ، لم نجد من يستطيع أن يسبقه أو يلحقه أو يقف
فى صفه . . . فقد كان شعراؤنا فى مصر وسوريا ولبنان والعراق
- فى الاغلب - مجالين يسيرون فى ركب الامراء محافظين
متأدين يقفون فى الوسط فى معترك التجديد والتقليد . .

ولا يمكن أن يكون شوقي أو حافظ أو مطران أو الكاظمي أو
الرصافي قد طالب بحرية الكلمة أو اندفع في جرأة الزهاوي
ليطالب بتحرير المرأة أو تنقية العقيدة أو تحطيم الأصنام أو
الدعوة للقومية العربية أو مهاجمة الخلافة العثمانية أو الحكومة
الفاسدة أو طغيان الأمراء أو استبداد الملوك أو إجرام
المستعمرين .

ومع هذا فقد لقي جميل صدقي الزهاوي بعد موته نفس
الهوان الذي لقيه في حياته فلم يذكره إلا القليلون ولم يكتب
عنه بعض ما كتب عن شوقي أو الرصافي أو مطران .

وعندما أخذت أدرس حياته بحثت عنه في مطبوعات دور
النشر الكبرى فلم أجد عنه في أبواب الاعلام دراسة ولا في باب
الشعر ديوانا . . ولا في أبحاث الادب رسالة . . ولولا
فصول منثورة كتبت في الهلال والكتاب والرسالة وفي مؤلفات
الريحاني وروفايل بطي وشوقي ضيف ولويس شنجلر
وأليس المقدسي والزيات . . لكان من العسير أن يجد المؤرخ
ما يفيء أمامه الطريق لحياة هذا الشاعر العملاق الذي كنا
نصافح شعره سنوات ١٩٣٢ وما بعدها في الرسالة فنرى ذلك
الوهج القوي اللافح في جرأته وحرارته وإيمانه . . وهو في
ذلك الزمن لم يكن إلا في شيخوخته . . كان في السنوات
الآخيرة من عمره المديد . . وقد هدته الأمراض . . ومع ذلك
فقد كان حيا دافقا يملا النفس . . ويذكر بعظمة المتنبى

والعربى مختلطة ممتزجة .. الأول فى كبريائه واعتداده والثانى
فى شكوكه وتحرره ..

ولقد كان من الطبيعى أن يجرى اليوم الذى يشير الزهوى
ثورة جديدة فى الشعر العربى والفكر العربى وان بدت أهدافه
وعانيه ورؤاه اليوم وقد تحققت الا انه ما يزال رمزا على معنى
الجرأة والقوة والحياة الدافقة .. انه سيقطل منارا فى الفكر
العربى يهدى الى غاية جديدة لم يكن يعرفها الشعر العربى من
قبل وان يكن مطران قد جدد المصايفى فان الزهوى قد جدد
المعانى واعطى الشعر معناه الحق فى الكلمة الخالدة « ديوان
العرب »

عصر الزهاوى

عاش الزهاوى سبعين عاما من عمر العراق والامة العربية فى فترة من أخطر فترات هذا الشرق .. هى مرحلة التوثب والصراع والانتقال من استبداد تركيها العثمانية الى ظلم الاستعمار البريطانى .. عاش هذه الفترة الضخمة يقظ القلب حتى الوجدان .. متأثرا بالاحداث .. مسجلا لها .. ولم يقف عند هذا شأن الشعراء .. ولكنه كان صادقا يدعو قومه الى كل جديد ، لا يمل الحدا ولا النداء ولا الدعوة مهما أغضب الناس ومهما أغضبه الناس .. انه ذلك الداعى العنيد الذى يتلقف كل جديد من الرأى فينقله شعرا ويدعو اليه العراق والعرب .

وقد شب الزهاوى عن الطوق ابان الاحتلال البريطانى لمصر وهزيمة عرابى .. فى نفس الوقت الذى كان العراق يرزح تحت سلطان طاغ هو سلطان العثمانيين ، الذين يكرهون العرب ويسوءون جزءا كبيرا من الامة العربية استبدادا مرهقا عاصفا . وكان عبد الحميد اذ ذاك يقبض بحفنة من الجواسيس على رقاب العباد ويحصى عليهم أنفاسهم .

وسرعان ما خلف الزهاوى مدائح للسلطان ، عندما بدت معالم دعوة أحرار تركيا الى مقاومة استبداد عبد الحميد ،

وراح يمشره وأبلا من شعره أنير دغيا إلى السحور ٠٠ ثم
نصور القاريح زاحس السسور عمامي فتنصر رجب تريب
الغاة وهما نوى الزهاوى في فندمة مرليب فرحا بمبهاجا ٠٠
عبد للحرية ونحيا للعراق وسطيف إلى فجر جديد في حياة الأمة
عربية ثم لا تلبث الدعوة إلى التوحيه العربية أن تعلى حتى يمدد
فيها ويهاجم أحمد جمال السيف الحواسي ثم إلى سوريا بعد
أن علق على أشتاق الأبرار شهيد ٠ من صغره التريبل الأول
للدعوة إلى انفصال العرب عن الترك ومقاومة الحملة العرسه
للتريك العرب باسم «الجامعة الطورانية»

فإذا بدأ العراق يدخل في عهد جديد بعد نوره داميه ترى
الزهاوى يدعو إلى السسور والبرلمان والسوري وحريه
الصحافة والاستقلال وتحرير المرأة ٠٠ وينضم موكب الدعوة
إلى الإصلاح الاجتماعي ويشارك فيه بمشاركه فعالة ٠

وهو في هذه المرحلة الطويلة يهتد بالشعر قويا حيا ذاخرا
بالانفاضة ، فيه صورة ذلك القلب الذي يتحرق إلى حريه
فومه من أصر الاستبداد والامستعمار والخرافات والافهام
والجمود ٠

وهو طوال هذا الزمن يسافح عن دعوة لحرية والتجديد في
قوة ٠٠ ويكرر ما يقول أحيانا ٠٠ ويندفع في حماسة بالغة ٠٠
وقد يكتو ٠٠ وقد يخطئ ٠٠ ولكنه لا يتوقف أبدا ولا بصمت
أبدا ٠

وقد يكون شعره نظما ٠٠ وقد يكون أقل جودة من شعره
عصره ولكنه يتفوق عليهم جميعا في أنه يحمل مضمونه معاني

قوية .. وآراء جديدة .. وحركة دائبة .. وانه يدعو
 ولا يبتلى الدعاء الى المحسنة .. ويصرخ ولا يبلى الصراخ
 هذا عن الجديد ... وينادي ولا يتوقف عن المنهجية
 باسم العراق الحبيب الى نفسه ونفوس العرب جميعا . وقد
 عاش هذا الزمن كله طوال أيامه عابسا متشائما شاكيا
 سخطا مسرفا في العيوس والتشاؤم .. غير متوقف عن
 الشكوى والسخط ذلك ان نفسه الكبيرة وحبه للعراق وايمانه
 بالحرية وتطلعه الى فجر مشرق يرى فيه العرب وقد أصبحوا
 في مقدمة الركب . كل هذا كان يشعره بأن التطور بطيء وان
 التقدم وأن .. وان ما يتطلع اليه من أمل ما يزال بعيدا . أضف
 الى هذا أنه كان يحس بعد أن ارتفع به السن انه لم ينصف
 في قومه ولم يكرم في وطنه .. ولم يأخذ مكانه الحق .. وان
 حملات النقد العاصف وكلمات الهجاء المرير كانت تنتاشه من
 هنا أو من هناك . ونسى انه لم يكن شاعرا يغرد فيجتمع حوله
 الناس ليصفقون له ، وانما كان داعية يحطم قديما باليسا ..
 ويمزق تقاليدا تعارف عليها الناس بالحق أو بالباطل طويلا .
 وانه كان يدعو الى جديد تنظر الجماهير اليه في خوف وقلق
 واشفاق ، وان من شأن من يتصدى لهذا أن لا يجد من عامة أهل
 بيته الا المعارضة والخصومة .. وقد كان يستطيع أن يدع
 هذا وأن يعيش مادحا ومغردا وسائرا في كل ركب ، عندئذ
 كان يجد من عامة الناس الرضى والاعجاب والتصفيق ، أما وقد
 اختار لنفسه الدهوة الى الحرية والخلاص من أسر التقليد ..

واغلال القديم .. وفيود الجمود .. فلم يكن من المستوقع أبدا
أن يواجهه إلا بمثل ما ووجه به على أن الزهاوى يقر الآن في
فجره راضيا حين يرى أن دعوته دفعت العرب جميعا إلى الفجر
الصادق .. فبدأت علامات الحرية الحقة ترسم في الأفق ..
والأوطان تخلص من المستعمر ، والمجتمع يتقدم ، والمرأة تأخذ
حقها في العلم والسفور والعمل فتشارك في كبريات الأعمال
وتدخل البرلمان وإن علامات الجمود والتقليد والبسود في
محيط الدين قد تراجعت وحل محلها اجتهاد وتحرر وعودة إلى
المنابع الصافية للعقيدة .

وليس شك أن صيحة الزهاوى وثورته المتصلة ودعوته
التي امتدت خلال حياته أكثر من أربعين عاما كان لها أثرها في
التطور .. ومكانها في تاريخ حركات البعث والتحرر .

مطلع الشمس - باب

ولد الزهاوى (١) فى يوم الاربعاء ١٨ من شهر يونيو
(حزيران) عام ١٨٦٢ فى بغداد وكان والده محمد فيضى
الزهاوى مفتى العراف ٠٠ وأخوه فقيه من فقهاؤها ٠٠ ويرجع
نسبه الى أمراء السلطانية الذين يرجعون الى خالد بن الوليد
وترجع شهرته بالزهاوى الى أن جده هاجر الى «زهاو» من
أعمال ايران فأقام فيها ٠ وتزوج منها بسيدة زهاوية ٠

أما أم المترجم له فسيدة من أسرة عريقة فى المجد - غير
انها كانت عصبية المزاج ولا تدع لراى أحد (٢)

ومن هنا تنكشف لنا حقيقتان : الاولى انه نشأ فى محيط
الفقه والدين وكان والده وأخوه يربذانه صاحب فقه وقضاء ٠
فاندفع خارج هذا المحيط بل لم يلبث أن هاجم هذا المحيط
بشورة على الفقهاء ورجال الدين وهذا اتجاه طبيعى بالنسبة
للزهاوى العنيد من ناحية وبالنسبة لرغبته فى التبريز عن

١ - زهاوى زاده جميلى صدقى افندى كما ورد اسمه فى

الكتب القديمة

٢ - من رسائل الزهاوى الى أحمد محمد عبيش ٠ ملحق

السياسة الاسموعية ٧ يناير ١٩٣٢ .

طريق مخالف لطريق أبيه وأخيه والأحرى .. ان أمه كانت
عصبية المزاج ولا تدعن لرى أحد . وقد ورت الزهاوى منها
هذا الطبع وعرف به .

يقول الزيات : ان أمه يريدونه صاحب قصصا ووقعه .
ولكن عناده دفعه أن يديم السمر فى الآداب .. ثم بدا ينظم
النسر فكان صاحب دعوه وفلسفه وان الاستعداد الموهوب فى
النظم وهو منسبته الحق فى حقى . جعل من الزهاوى
أبا العلاء وقد كن هذه يريدونه ب حنيعة .

ويرد بعض المؤرخين جراه الزهاوى لى عرف اعم والخال
من الكردية .

وقد تعلم الزهاوى تعليما ديب .. عند ذهب الى الكتاب
فى سن الخامسة ومكث فيه لبضع سنوت بليدا لا يتقدم
ولا يهتم بغير اللعب ونظم الاشطر الفارغة من المعنى .

وكان كثير الحركة محبا للعب أكثر من اخوته وأترابه ..
متمردا لا يدعن لراى .. يقول الزهاوى فى رسالته (١) : كنت
فى صباى أدعى بالجنون لحر كنى غير المألوفه .. وفى شبابى
بالبائس لى وايقالى فى اسبو . وفى كنى بالجرىء
لمقاومى للاستبداد . وفى شمسوخسى بزنديق لجرىء
بارائى الحرة الفلسفية .

وقد تعلم كثيرا من علوم الأربى فلم يشبع عنه . واستطاع
أن يقرأ كثيرا مما ترجم الى العربية على أساتذة مختصين .
(١) رسائل الزهاوى . مجله الكاتب المصرى يناير ١٩٤٧

ثم قرأ عن الفارسية والتركية بعد أن أجادهما ومعنى هذا أن علامات الثورة ولدت مع جميل وأن روح التمرد وعدم لادعاء لاجد . . كانت من أول ملامح صباه وقد طلعت عنه العواطف تتفاعل في نفسه طوال حياته .

ولعل أمرا آخر كن له أثره في تكوين طبيعة الزهاوى وشخصيته : يقول الزهاوى (١) كانت والدي نعيم مع أولادها في بيت منعزل عن بيت والدي فنزعتني والدي من أحضانها دون اخوتي وإخواني . . وأخذ على عاتقه تربيته تربية خاصة متبعا هراه . وكان من هواه الأدب . . وكان شاعرا في الفارسية والعربية معا غير أنه مقل فيهما .

ولعل هذا الحادث له أثره في نفسية الزهاوى . . من امتزاعه من أنه دون أخونه لابد أن ترك في نفسه احساسا بالانتماء والضيق أضيف إلى عواطف نفسه فزادها ثورة وقلعا واضطراب ثم ابتلى جميل في الخامسة والعشرين من عمره بداء النخاع الشوكي الذي لازمه بقيه حياته ولم يلبث بعد ذلك أن أصيب بالشلل في رجله .

ويقول أحمد محمد عيسى (٢) إن جميل حفظ جزء «عم» بعد ثلاث سنوات . . ثم قرأ جميع أجزاء القرآن وحفظ منها ما استطاع وفتح ذهنه شيئا فشيئا . . وقرأ على بعض العلماء مبادئ الصرف والنحو والمنطق . . وقليلًا من البلاغة . . ولما

(١) رسائل الزهاوى . مجلة الكتب المصرية يناير ١٩٤٧

(٢) السياسة الأسبوعية - ٧ يناير ١٩٣٣

وأهم لا يسبعون جثسه .. ولا يروون عنته .. ولا يملعونه
بأجوبتهم على أسئلته العويصة عن الألوهية وما شاكلها رجع
إلى أبيه غضبان أسفا .. قائلا له :

هؤلاء شيوخ جامدون

قال والده : ويل لك يبنى أنت ومن على شـساكتك من
الشيوخ الجامدين ..

وهذه هي أول معالم الثورة .. ولابد أن ذلك كان في سن
العشرين أى عام (١٨٨٣) وهذا التاريخ عندما بدأ حياة
الزهاوى الأدبية وعلامة الطريق الطويل الشاق الذى قطعه
محملا بورانياته وعوامل بيئته .

ولقد كان والده يشفق عليه من ثورته ونزعته الجريئة إلى
التمرد . ويروى أنه استدعى ابنه إليه فى ليلة من ليالى
الشتاء الباردة .. كان قد أهله عيادة جميلة .. وقال :

— ألبس .. يا جميل عباةك فأنى أخاف عليك البرد

ورد جميل على طريقته المتمردة الجريئة :

— يا أبى انى لأبس الغرفة فمن أين يتسرب البرد إلى .

وصمت والده ولم يزد على أن نظر إليه فرأى بريق الذكاء
الحاد ينفذ من عينيه الواسعتين وقد رفع رأسه الكبير فى
زهو وثقة ..

وقد قسم جميل شبابه بين اللعب والقراءة .. كان يلعب
بالكعاب ثم بالحمام القلاب فيطيره أسرابا فى الهواء . كما
أولع بركوب الخيل فكان يسابق ويسبق كما أحب لعبة الداما

وقد أُلّف في هذه الألعاب رسائل نشرها في المقتطف
والهلال .

ومن ناحية أخرى أكتب على قراءة المتنبي وتفسير البيضاوي
وغيرها من المؤلفات الضخمة التي كانت تحفل بها مكتبة أبيه
وقال الزهاوي في بعض كتاباته (١) طالعت في شبابي
مؤلفات الدكتور فاندريك المطبوعة في بيروت وكتابي أصول
التشريع والفسيولوجيا لورتبانت . وبضعة مجلدات من المقتطف
كانت قد نشرت يومئذ فحصل لي بسبب هذه الكتب الاطلاع
على أساسات العلوم العصرية ، ثم توسعت في هذه العلوم في
كهولتي بمطالعة كتب مترجمة الى التركية . وأكثرت من قراءة
الروايات يومئذ من الفرنسية الى التركية . . فحصلت على
شيء قليل من العلم بمبادئ المجتمع الغربي وأفكاره منها
البؤساء لهوجو في مجلدين ضخمين . ولم استغن حتى اليوم
عن مطالعة الكتب المترجمة الى العربية أو التركية .

(١) الكتب التي أفادتنى مجلة الهلال - ١٩٢٧

حياته

من الاعلام من تكون حياته خطأ واحداً مستقيماً لا أحداث فيه ولا تقلبات ومنهم من تضطرم حياته بالأحداث صاعدة هابطة • دافعة مندفعة • هادئة لا تتوقف ولا تسكن • ومن هؤلاء جميل صدقي الزهاوى فقد كانت حياته الطويلة حافلة متحركة وهى الى ذلك خصبة غنية فيها الجديد دائماً وفيها الصراع والارتطام والاختصاص لا يتوقف ولا يهدأ ولا يئس والزهاوى منذ اليوم الاول حتى اليوم الاخير هو : الناصر المتمرّد الجريء الذى يعارك ويخلق ميادين المعركة ويواجه الناس بالجديد والغريب مما يغيظ ويبير • قلمه هو متنفس حياته • ونافذة روحه • •

ولقد ذهب الزهاوى شمالاً وغرباً وشرقاً • وعمل فى أكثر من عمل • وهو بطبيعته القلق لا يقر ولا يتوقف • وانما يتحرك ويتحرك دائماً • عينته الحكومة التركية فى أول شبابه عضواً فى مجلس المعارف ببغداد ثم مديراً لطبعة الولاية ومحرراً للمقسم العربى من الجريدة الرسمية « الزوراء » ثم عضواً فى محكمة الاستئناف ثم عين عضواً فى مجلس المبعوثان عن بغداد ولما أعلن الدستور عين أسباًذاً للفلسفة فى المكتب الملكى بالاستانة ثم معوساً للاداب العربية فى دار الفنون ثم عاد الى

بغداد فعين أستاذا للشرعية في كلية الحقوق ثم نائبا في مجلس الشيوخ العراقي .

وفي خلال ذلك سافر الى مصر وسوريا وذهب الى اليمن بإرادة سلطانية « واعظا عاما » وعضوا في الجمعية الاصلاحية وبقي فيها تسعة أشهر .

وهاجر الى سوريا ومصر . وأقام بالشام وبيروت فترة ثم عاد الى العراق

هذه ملامح الصورة العامة لحياته العملية ولكنها تحوى اغوارا بعيدة المدى فانه لم ينس خلال حياته هذه شعره ولا أدبه كان ينشر في المجلات والصحف في مصر وبيروت والشام وبغداد مقالات كثيرة وقصائد ثائرة أيام الاستبداد الحميدى بامضاء مستعارة .

وعندما سافر الى استانبول اجتمع بالأتراك الاحرار وجهر بالسخط على نظام الحكم القسائم اذ ذاك . ونظم عددا من القصائد نشرت في المؤيد . وعاش تتعقبه الجواسيس . وكانت النهاية أن سجن وحمل مقيدا الى بغداد .

يقول الزيات (١) : رأى في الاستانة عبد الحميد يلقي الاحرار مغلولين في غيابة السجن أو في قاع البحر فأرسل اليه مع أبى الهدى قصيدة قال فيها :

(١) الرسالة مجلد ١٩٣٧

أيأمر ظل الله في أرضه
 بما نهى الله عنه والرسول المبجل
 فيفقر ذا مال وينفى مبرأ
 ويسجن مظلوما ويسبى ويقتل
 تمهل قليلا لا تفظ أمة اذا
 تحرك فيها الفيض لا يتمهل
 وأيديك ان طالت فلا تغتر بها
 فان يد الايام منهن أطول
 فحبسه حيناً ثم نفاه . .

وسمع وهو عضو في مجلس المبعوثان عن بغداد مقرر
 الميزانية يذكر في وزارة الحربية مبلغا جسيما من المال جعلوه
 لقراءة البخاري في الاسطول فقال : انا أفهم أن يكون هذا
 المبلغ من وزارة الاوقاف . . أما الحربية فالمفهوم أن الاسطول
 يمشى بالبخار لا بالبخاري . فثار عليه المجلس وشغب عليه
 العامة .

ولا دعاه الخليفة الى الاستانة ، أقض مضاجع الجاسوسية
 فانتقص أمره وساء مقامه .

ويروي الزهاوي في إحدى رسائله الى أحمد محمد عيسى
 أخرج ساعات حياته يقول : ان أخرج ساعاتي هو يوم هاج
 الشعب العراقي على عام ١٩١٠ لمقالة شديدة نشرتها في
 « المؤيد » في الدفاع عن المرأة حتى اني قبعتم في داري أسبوعا
 ولم أخرج منها خوف اغتيال الشعب المارد لي . وعزلني يومئذ
 والى بغداد ناظم باشا من وظيفتي في مدرسة الحقوق ببغداد

وفد الزوج الزهاوى فى سن الثلاثين بالانسة زكية هانم وعمرها يومئذ ١٦ سنة وهى من بيت تركى شريف ولم يولد لهما ولد وخدمته نى شيتوخسى بإخلاص وأمانة (١) .

وقد عاش الزهاوى (٢) بالرغم من الامراض والشلل والنوبات العصبية ، ظل الى ما قبل وفاته بيوم واحد وقاد الذهن قوى الذاكرة . وكان يحب المرح والاطراء ويضيق بالنقد ذرعا .

ويصف الزيات الزهاوى . وقد عاش معه فى العراق أعوام ٣٠ و ٣١ و ١٩٢٢ وكان صديقه الوفى . « لم تكذ تلوح فى مخيلتى صورة الشاعر التى صورها السماع والغراء حتى رأيت على باب البهو شيخا فى حدود الثمانين قد انخرع مقته وثقلت رجله ورعشت يده وهو لا يحمل بعضه بعضا الا بجهد والزهاوى ديدنه ان يتكلم ككاتبين خاصته ان يغرد . . فهو فى مجلس الصدفه ساد أو سكر . وفى مجلس الادب محاضر أو شاعر وفى مجلس الانس مفدكه أو محدث » .

كما صور الزيات منتداه بشارع الرشيد أو على ضفة دجلة وهو جالس على الدكة الخشبية ينشد الابيات الرائعة أو يرسل النكتة الباردة أو يروى الخبر الطريف فى بشاشة جذابة وتهفئة ساذجة . . ويده المرتعشة لا تنفك تعبت بسبعته الصغيرة أو تصعد وتهبط سيمكرته المراقية .

(١) رساقل الزهاوى : الكتب المصرى . يناير ١٩٤٧

(٢) سليم طه التكرينى . مجلة الكتاب . يونيه ١٩٤٩

كما وصف معمر في (الصابونية) وكيف كان يحدثه أنه
فضى الليل مع همراة شراً .. زواجهما خطم .. القصص والمجالات
منتشرة على سريرته وعلى مقعده .. المسودات مدسوسة تحت
مخداته أو في ثيابه ..

بقول للزيات : أنظر كيف ادب عمري في شعري .. والامه
تدفني بالبهمان .. واحكومه تخرجني من محبس لأعداء ..
والملك يستنكر على أن أكون ساعدا لبلاط ..

.. ثم لا ينبغي أن يقول : سادس وسبعين شعري شعيرة
عن شعوري لطقه بآلامى فهي دموع ذرفت على الطرس وهي
خليقة أن تبعث من عبون قارئى دعة هي كن جزائى عن نظمها

شعره

اشتغل الزهاوى بالنثر والشعر ولكنه برز فى الشعر وعرف به وأطلق عليه لقب (الشاعر الفيلسوف) وقد بدأ حياته كاتبا ولكنه تفرغ للشعر بعد قليل واقتصر عليه . وان كانت محاولاته الاولى فى الشعر بدأت باكرة وساذجة .. يقول الزيات : لم يعرف الشعر الا بعد أن علت به السن . ويقول فى رسائله الى محمد أحمد عبش (١) : ان والده كان شاعرا فى الفارسية والعربية معا وان كان مقلا فيهما .. ومن شعره فى العربية قوله :

لا تدع فى حاجة بازا ولا أسدا
الله ربك لا تشرك به أحدا

يريد بالباز عبد القادر الجبلى . وبالاسد عليا بن أبى طالب كما كان يلقبهما به الجمهور فى العراق . ويقول : وأتذكر أنه - أى والده - كان فى طفولتى يعدنى بدهم اذا نظمت شطرا واحدا من الشعر موزونا . وان لم يكن له معنى . وقد كسبت الجائزة مرارا فكان فى ذلك جـزل

والدى • اما جذلى اما فكدن فى العسوى التى كنت شمرىها
بذلك الدرهم •

ومد ناول الزهاوى فى شعره السيسه والاجتماع والفسزل
ولعلم والفلسفه •

أصدر عدة دواوين : الكلم المنظوم بيروت ١٩٠٨ • ديوان
الزهاوى : القاهرة ١٩٢٤ ، رباعيات الزهاوى : بيروت ١٩٣٣
اللباب : بغداد ١٩٢٨ ، الاوشل : بغداد ١٩٣٤ ، الشماله :
بغداد ١٩٣٩ ، ترجمه رباعيات الخيام من الفارسيه بغداد ١٩٢٨
وله ديوان نزعات الشيطان مجموعته من القصائد • تنشر
بعد فى المجلات ولجرائد •

يقول الزهاوى : وسوف تنشر بعد موسى لانها مضمدم آراء
المتعصبين وتثيرهم على اثاره لا أحمد عقباها •

وقصيدة : ثورة فى الجحيم •• وعدد أبياتها ٤٣٣ بيتا
ونشرت فى مجلة الدهور فى العام الماضى •• وكانت تصدر فى
بيروت • يقول الزهاوى (١) وقد قامت حولها ضجة كبيرة •
وقد سبني بسببها بعض المتعصبين على المنابر فى خطبة
الجمعة • ونفنت بعد قليل من الزمن نسخها •

يقول الزيات : نظم فى أعقاب عمره قصيدة « ثورة فى
الجحيم » فلما كلمه الملك فيصل بشأنها قال : عجزت عن
اضرام الثورة فى الارض فأضرمتها فى السماء •

وقال الزهاوى فى رسائله : أن أكثر شعرى الذى نظمته

(١) رسائل الزهاوى ديسمبر ١٩٤٦ الكاتب المصرى

قبل الدستور العثماني نشر في ديوانى الاول الكلم المنظوم (١)
 كما كتب عليه هذه العبارة « نظمه ونشر أكثرها ابانها بامضاء
 رمزى فى أشهر جرائد مصر يوم كان الاستبداد شديدا » .
 وقد أوضح الزهاوى منهاجه الشعرى فى مقدمة ديوان
 الزهاوى الذى صدر فى القاهرة عام ١٩٢٤ : قال فى مقتطفات
 من هذه المقدمة :

الشعر ما ينظمه الشاعر من احساس يجيش فى نفسه
 بأوزان موسيقية فيهب به المسامع .. ولا أرى للشعر قواعد
 بل هو فوق القواعد .. ولا يتقيد بالسلاسل والأغلال ..
 وهو أنسبه بالاحياء فى اتباعه سنة النشوء والارتقاء .. يتجدد
 بحسب الزمان ويرتقى من الأدنى الى الأعلى .. وانزخ أن
 امشى بشعرى فى سبيل الحياه الطبيعىة متجيبا المبالغات
 وما اخلق الشاعر بأن يخرق التقاليد التى ورثها الابناء عن
 الاباء فيقول ما يشعر به .. ولا يشعر به اباؤه .

وما زلت فى جو من الفكر طائرا

ومن عادتى أن لا أطير مع السرب

ولا أرى مانعا من تغيير انغافية بعد كل بضعة أبيات من
 القصيدة .. عند الانتقال من فصل الى آخر .. كما فعلت

(١) طبع فى المطبعة الاعليه ببيروت وآخر قصائده ، ورخه

بغداد فى ٧ أغسطس ١٩٣٢ هـ

فى عدة قصائد ، لا دوماً نخل السماع من سماع ثافية الواحدة
فى كل بيت . . بل اراحة للشاعر من كد الذهن لوجدانها .
واجيز للشاعر أن ينظم على أى وزن شاء سوء كان من أوزان
الخنيل أو من غيرها . و شاعر البحر سجاع لا يهب فى الصدق
لومة اللائمين ، الا اذا أحس بالمهلكة فعندئذ يسكت أو يكذب .
ونزاع الى التجديد . ينور على النظام . ويتمرد على السنتان
الكاذب . . يريد كل يوم أن يمزق عن العبادات . ويمزق
أطوارها البلية كالقراصة التى نخلع - ترفضها لبرز فى نوب
أجمل محبر بألوان السماء .

٢ - الجديد . . الجديد . . هو أحسن ما تنزع اليه النفس
الوثابة ولو لم يتجدد الليل والنهار لملهما النظر .
سمت كل قديم عرفته فى حياتى

ان كان عندك شيء من الجديد فهات

ولا أريد بالتجدد أن يقلد الشاعر العربى شعراء الغرب فى
شعورهم . . فان لكل أمة شعورا خاصا بها لا تحس به أمة
أخرى .

لا أقول أن يحمده الشاعر العربى على ما هو عليه الشعر
اليوم . . بل الاحجى أن يترقى شعر كل أمة فى سبيله
ولا يسوغ للشاعر العربى مخالفة قواعد اللغة . وللشاعر
الفحل أن يولد فى اللغة اذا مست الحاجة كلمات لم يات بها
من جاء قبله .

٣ - وجدت الذين مارسون الادب ثلاثة

الاكثر عددا من لا يستحسن من الشعر الا ما ألفه من

من القديم وانتقل اليه بالوراثة من العصور الماضية ..
والشعراء المسايرون للجمهور ينالون حظوة منهم

♦ المتشرب مخه من الادب الغربى لا ينزع الى الشعر العربى
الا على نسق مايقول شعراء الغرب . ومثل هذا قد خرج من
فسيحة قومه واندمج فى غيرهم .

♦ قليل يسير مع رقى العلم جنباً الى جنب . ويستحب
لشعر خلوا من المبالغت منطبقاً على الطبيعة مع المحافظة على
لشعور العربى الذى هو قوام شخصيته . والاخلق الا ينتظر
لذى له نزعة التجدد أن يكبر شعره الجمهور من جيله الا اذا
ان الجمهور منحطاً قد تعود القديم .. والمشاعر الذى يسائر
معور الناس فيما ينظم ينال اقبالهم على شعره مادام الشعب
امدا . أما اذا تقدم الشعب ، فان شعره يموت ويأخذ مكانه
شاعر الذى يتجدد مع جيله ١٠٠ هـ

وقوام رأى الزهاوى أن هدف الشعر عنده هو التجديد ..
رفع المشاعر الى الحرية الفكرية والاصلاح . وحمل الجماهير
الانتقال من الجمود الى الحياة .

وقد كان الزهاوى شاعراً له هدف ورسالة وغاية يحصل
عمرة البحث فى حدود قوله : تمزيق العادات البالية دون أن
تشم غضب الجماهير أو هجائهم .. بل انه يرى أن الجمهور
يكس المشاعر المجدد الا بعد أن يموت ويأخذ مكانه بين الشعراء
ل: (١) غنمت لافناء ، طمى لافناء ، اريد اية .. اعظم .. فلما

(٢) مقدمة ديوان الزهاوى ١٩٢٤

لمحوا عيوبهم شمعوني ، ثم عيت وحدوا يظرون اني شاعرا
ثم حيت فبسموا بي ثم محوا وبقي فيهم من يسلم . وحيت
وساعني اني ان يسكنني الموت ، وسوف يبقى للمسيح معبره عن
شعوري وما تابدته في حياتي من شفاء واصطهاد ، فهي دموع
درستها يرعني على الصرس دهنه بلامي . . وهي حقيقه بان
تدرف من عيون دارنها دمعها هي دن جزائي من نصها .

ويرى الزهاوي ان شاعر الاجيال لا يموت شعره لانه يبنيه
على الحقائق الخلد . . وهو في الغالب يسبق جيله . ولا اراه
مستقيما من المستقبل الذي يجمع اهله على اكباره لانه يكون
يومئذ تحت اطياف النرى بينما لا يسمع هتاف النحاتين له . .
والزهاوي في هذه العبارة يعني نفسه . ويرى انه قد سبق
جيله وانه لم يلق الجزاء من اهل زمنه . ولم يستهدف لزهاوي
من شعره كسب او نقا قال :

شعري ما أردت أن أكسب به مالا . . أو اتزلف على احد .
فما رثيت الا من كان صديقي . ولا حمدت لا من طمنت فيه
خيلا للبلاد . وربما خاب ظني في بعضهم فكففت .

ولكن هذا لا يمنعنا من القول بأن الزهاوي جرى مجرى
القدماء في المدح والرثاء والهجاء . وهو في هذا مجدد بالمعاني .
مقلد بأساليب القدماء وأبواب القول عندهم .

ويصور الزيات الزهاوي الشاعر في قوله : كان فكره أقوى
من خياله وأسمى من عاطفته وهو من شعراء الفكرة له البصيرة
النافذة . وليس له الاذن التي (تموسق) الموسيقي . . ولا
القرينة التي تصنع . . فاللفظ قد لا يختار . . والوزن قد

لا ينسحق والأسلوب قد لا ينسجم ، ولكن الفكرة الحية لجريته
تتج بين الابواب المتخادلة عجيج الامواج المزيدة بين الشواطيء
المنهارة .. ويرى الزيات أن الزهاوى عقلية أفافة وحسيرة
دفاعه وطبيعة ساخرة .. وهذا التوتب الحماسى هو الذى جعله
يؤثر النظم فى تقييد خواطره .. وهذه الحماسة قد
أحيانا عن الفكرة لكلالها أو ابتذالها .. فيذهب الشاعر
ولا يبقى الفيلسوف .

ويقول الزهاوى فى بعض رسائله أن شاعريته بدأت وتدرج
فى سن الخامسة عشرة .. ومن أوائل شعره :

أما آن أن نأبى على الوطن العار

فتركب أخطارا ونقض أوطارا

وقد ترجم الزهاوى شعرا عن تورايس هاردى ونشره فى

..

الهلل عام ١٩٢٩

وتعد قصيدة « تورا فى الجحيم » من أهم شعر الزهاوى
فهى مؤلفة من ٤٢٣ بيتا فى قافية واحدة نشرها عام ١٩٢٩
فأحدثت ضجة وقد سائر فيها (رسالة الغفران) وتأثر بها تأثرا
واضحا فى الفكرة والمشاهد . كما تأثر بدانتى فى الكوميديا
الالهية . وأخذ من (هوجو) العبارات التى سبقها على السنة
الملك الذى اتخذ رمز البومة .. وخلاصة ملحمته أن الشاعر
يصوت ويودع فى القبر فيظهر منكر ونكير ، بكاء الحساب ..
فيجرب بينه وبينهما حوار حول العقيدة والحياة والدين
والإيمان وتفاصيل العبادات والفروض الدينية . وقد عرض
لهذا كله فى سخرية وتهكم شديدين .

وهو يؤمن بنفسه كشاعر ومجدد وإن لم يكن زعيما :
 ننى منذ كنت أشدو بشعرى
 كن يوحى الى بالتجديد
 أنا لا أدعى الزعامة فيه
 غير أنى أثبت فيه وجـودى
 حبذا الليل والنهار بعينى
 اننى مغموم بكل جديد
 وجديد القريض قرب معانيه
 وبعد له عن التعقيد
 ولقد أحب الزهاوى وقال شعرا عاطفيا رائعا :
 نظرت اليها وهى بيضاء تبهج
 نجد به ماء الصدا يتوهم
 مشيت ومشى قلبى المتيم خلفها
 يقبل آثار الخطى حيث تنهج
 لها وهى أدرى العالمين بحالتى
 هوى فى فؤادى ناره تشـاج
 أريد اذا قابلتها لا بنها
 غرامى بها لكننى أتلاجـاج
 تمنيت ياسلمى وهل يتففع المنى
 لو أن حياتى فى حـماتك تـمزج

الزهاوى المجدد

أجمع مؤرخو الزهاوى على أنه شاعر مجدّد وأنه جدّد فى أربعة أمور :

♦ مكافحة العادات والتقاليد البالية والدعوة الى التحرر والتجديد والاصلاح الاجتماعى .

♦ مناصرة المرأة والدفاع عن حقوقها

♦ ادخال النظريات العلمية ، والافكار الفلسفة المستحدثة فى الشعر .

♦ التحرر من قيود اللغة واستعمال المصطلحات العلمية ومزاولة الشعر المرسل

وقد ثار الزهاوى على القديم جملة .. فى الفكر والسياسة والاجتماع .. وثار على الحكام المستبدين والطغاة الظالمين . ونقد سلاطين آل عثمان وولاتهم مما أدى الى سجنه ونفيه ومحاكمته فى رزقه .

قال فى السلطان عبد الحميد الثانى وقد نفي بسببها من

الاستانة عام ١٨٩٧

لقد عشت بالشعب أظمأخ ظلم
 يجعله من جورته عا يحمسن
 فيا ويح قوم فوضوا أئر أنفسهم
 الى ملك عن فعلته ليس يسأل
 الى ذى اختيار فى الحكومه مطلق
 اذا شاء لم يفعل وان شاء يفعل

وما أعتقد أن شاعرا فى الشرق العربى فى هذه الفترة قاوم
 السلطان هذه المقاومة أو عارض الحاكم الظالم على هذا النحو
 وقد كان الزهاوى حفيا بنظريات الكون والوجود والجاذبية
 والنسبية والتطور والفلك والكهرباء • وضرب فيها بسهم وافر
 من منظومه ومنشوره •

وقد درس الزهاوى نظريات داروين فى التطور ونيوتن
 فى الجاذبية وانشتين فى النسبية وضمن شعره هذه الآراء •
 وهو أول شعراء العرب الذين عتوا بهذه الموضوعات • بل هو
 أول من أدخل المصطلحات الحديثة فى الشعر العربى فترددت
 فى أبياته كلمات لاثير والالكترون والبروتون والكهرباء •
 وكان ذلك منذ أكثر من خمسين عاما •

وقد قال ناقدوه انه ما أن يقرأ حكمة أو نظرية أو رأى
 مستحدث حتى يعمد الى قلعه فيدخله فى شعره • وقالوا
 أيضا انه ليس للزهاوى رأى جديد فى كل ما قاله من شعره •
 وإنما كان تريدنا لما كان يقال فى صحف مصر من أحاديث
 سلامة موسى وطه حسين وهيكى وغيرهم من المجددين •

ويعصف الزيات تهالك الزهاوى على التجديد على أنه خوف
عاصف من الاتهام بالجمود . كان الزهاوى كشوقى (١) حريص
على متابعة العصر ومسايرة التطور . ومنشأ هذا الحرص فيهما
طبع مرن يطلب التجدد . . وحس مرهف بأنف التخلف . .
ويزيد الزهاوى أن الفجر يزهاه وأن التيه يذهب به . . فيحب
الثناء ويبغض النقد . وهو لفرقه من صفه القدم يسبق الكتاب
الى التجديد . ولنفوره من معرة الجمود يذهب بالرأى الى التطرف
ونطمعه فى نباهة الذكر يجارى ممول الخاصة . . ويعارض
هوى العامة . . ومن ثم كان أكثر شعره تشنيعا على الاستبداد
بمهاجمة أهل الحكم . . وزراية على الجمود بمحاربة أهل الدين
وتحقيرا للتأخر بمصادمة مألوف الامة .

ولعلنا نضيف الى هذا أن الزهاوى قد جدد الشعر بادخال
عنصر الفلسفة اليه حتى وصف بأن الفكرة الفلسفية هي المادة
الاصيلة فى شعره .

ويعزو بعض مؤرخيه نزعة التجديد فيه والدعوة الى
الحرية (٢) الى ما تذوقه من نسمات الحرية فى الفترة التى
أمضاها فى الاستانة . . حيث عاش فى جو تركية الفتنة
والدعوة الى الدستور وجهاد مدحت باشا فى سبيله . . ولما
تتلقفه من نسمات الحرية عن طريق الصحافة العربية فى المهجر
ومصر ولبنان .

(١) مجلد الرسالة ١٩٣٧

(٢) سليم طه التكرينى : الكتاب يونيه ١٩٤٩

ولقد كان الزهاوي (١) يحب شعوره ويعيش به زواجا رفيقا
وخليله ويرى فيه عزاء عند الملل والمسيلة عندما تعذره
الهموم .

يا شعر انك انت صوب صميري
بيديك حوني ورد وسروري
يا شعر انت بكائي يوم كآبتي
وبسمي يا شعر يوم حبـوري
انا انت يا شعري وانت ان فمن
يترائك يقرأ سميري وسـعوري

ولقد ظل الزهاوي يكرر آرائه في كل شعره . ويصر على
رأى قاله بالرغم من خصومة الناس له . وهو في هذا يجيد
اجادة ممتازة في بعض الاحيان ويكرر نفسه ويستطرد ويبدو
مبلا وضعيفا في احيان أخرى .

وقد كره اللغة التقليدية والمحسنة البديعية والنمطية . .
ولم يقف شأن الشعراء المعصرين له عند المعاني العامة بل خاص
معركة السياسة والحياة والمجتمع في قوة

هذا وقد سببت نزعة الزهاوي التجديدية له كثيرا من
المتاعب والخصومات ولم يحسن اهل وطنه جرأة آرائه

(١) معاضرات ناصر الحدي عن الزهاوي .

واندفاعه فردوا له الصاع صاعين

يا نفس قد سبوك حين نصحتهم

هذا جزاء الناصحين فذوقى

قالوا اطردوا الزنديق من أوطانكم

ماذا يخاف القوم من زنديق

قلوا اقتلوه فانما هو مارق

ماذا يضر المؤمنين مروق

أنا لست زنديقا ولا أنا مارق

حتى يحل لطفركم تمزيقي

والزهاوى الشاعر المجدد له فى الحب شعر عميق المبني

جديد فى العرض تتمثل فيه طبيعته الحريصة على أن يفول

ما لم يقله الشعراء من قبله :

أول الحب فى القلوب شرارة

تختفى تارة وتظهر تارة

ثم يرقى حتى يكون سراجا

لذويه فيه هدى وانارة

ثم يرقى حتى يكون مع الايسا

م. نارا حمراء ذات حرارة

ثم يرقى حتى يكون أتونا

بحراراته تذوب الحجارة

ثم يرقى حتى يكون حريقا

فيه هلك لاهله وخسارة

ثم يرقى حتى يمتثل بركاتها
 يرى الناس من بعيد ناره
 ثم يرقى حتى يكون جحيما
 عن تفصيلها تضيق العبارة
 ومن آيت تحديد انه نقل العلم والطبيعة والفلك والكائنات
 وتعليل الجاذبية الى الشعر . يقول في قصيدته : سياحة
 العقل .

لا تقبل الاجرام عدا
 كلا ولا الابعاد حدا
 العقل يرجع خائبا
 فيها وان لم يال جهدا
 مسترشدا بعمله
 فيها اذا ما صل يهدي
 والعقل يعلم من سياحته التي اولته مجدا
 ان المجرة لم تكن الا
 عوالم ففن عدا
 والسحب فيها أنجم
 من الشمسوس بعدن جدا
 متحركات في السماء
 تخال ان لهن قصدا
 منجاذبات نور تخلف
 واحد عنها لاؤدى

وهو يعاود الحديث عن شعره في عديد من قصائده ويطنأبك
بالانصاف

ما الشعر الاشعورى جئت أعرضه

وانقده نقدا شريفا غير ذى خلق

الشعر ما عاش دهره بعد فائده

وسار يجرى على الافسوه كالمثل

والشعر ما اهتز منه روح سامعه

كمن تكهرب من سلك على غفل

وخلاصة رأيه فى الشعر الجديد أن يتحرر بجميع اغراضه

من أسر التقاليد الجامدة . . وان الاوزان بالنظريات الشئ

وضعها الخليل ليست ملزمة وان التجديد يجب أن يشمل

القوالب والمضمون .

الزهاوى النائر

أريد في هذا الفصل أن أعرض للزهاوى المكتوب . . فقد
 حلف عددا من الأبحاث والدراسات لتسوية مما يدعون أن نحل
 معالم كتاباته . ومن هذه المؤلفات رسالة الكائنات (١) في
 الفلسفة أبدى فيها رأيه الحر في المكان والزمان والقوة والمادة
 والحياة والجاذبية ورسالة في سباق الخيل (٢) أودعها تجاربه
 في وكس الخيل . ورسالة في الخط الجديد (٣) وقال عنها:
 هذا الخط لا يشبه الخط العربي ولا الحروف اللاتينية ويقدر
 أن يتعلمه التلميذ في أسبوع . وهو جميل ويكتب مفصلا من
 اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين . ويطلع مقطعا . .
 وفيه تسهيل للطباعة . . فإن كل حرف منه إذا قلب كان حرفا
 آخر من الحروف مقام كل حرف بوظيفة حرفين وتعلم ما في ذلك
 من الاقتصاد . . ويمكن لهذا الخط أن يتخذ خطا عاما لجميع
 اللغات . ودروس الفلسفة (٤) التي كان القامحا على تلاميذه في

١ - طبعتها المقتطف بالقاهرة ١٨٩٦

٢ - طبعتها الهلال

٣ - نشرها المقتطف

٤ - القاهرة ١٨٩٤

جامعه الاستانة ورسالة الفجر الصادق في الرد على الوهابية
وقد طبع في مصر قبل الدستور العثماني ورسالة الجاذبية (١)
وتعليقها ورسالة لعبة الداما وتحتوى على ١٥٠٠ لعبة منها
٥٠٠ لعبة لاصحابها و ١٠٠٠ من مستنبطاته (وهذه لم تطبع)
وكتاب تسهيل قواعد اللغة العربية ورسالة الجاذبية وتعليقها (٢)
وكتاب المجمل مما أرى (٣) .

وليس شك ان كل هذا المحصول الثرى الضخم يعطى
للزهاوى صفة الكاتب . وان لم يصل فيها الى درجة الشاعر
التي غلبت على حياته وفنه . ولعله مما يلاحظ أنه كان فى
شبابه يكتب النثر وان كل هذه المؤلفات أو أغلبها طبعت فى
الفترة الاولى من حياته وقبل أن يتفرغ للشعر تفرغ نهائيا
يقول الزهاوى (٤) بنيت الادب على أنقاض عبد القادر
العمري والاخرس وكلاهما من الشعراء الوزانين المقلدين فلا
حراله فى الفاظهما ولا ابتكار فى معانيهما .

ويقول الزيات أن الزهاوى كان فى شبابه ينظر فى العلوم
الفلسفية الطبيعية وسبيله الى ذلك ما ترجم من المقالات
ولكتب . . ولم يعرف من اللغات غير الفارسية والتركية
والكردية . . وانه ألف كتاب الكائنات فى الفلسفة . وكتاب

١ - طبعت ببغداد

٢ - بغداد ١٩١٠

٣ - مصر ١٩٢٤

٤ - رسائل الزهاوى - مجلة الكاتب المصرى ديسمبر ١٩٤٦

الجاذبية وتعليلها في الطبيعه وحالف به اقطاب العلم . ومن ذلك قوله : أين علة الجذب لست جذب المادة للمادة وإنما هي دفعها لها بسبب ما تسعه من الالكترونات .

وقد عرض العقاد لهذه المسائل الفلسفية التي تناولها الزهاوى في كتبه في مقال له نشر في كتابه ساعات بين الكتب كان قد كتبه عام ١٩٢٧ وفيه يقول : (١) اننى أوقر هذا الباحث الفاضل . وأعرف مستفلال فكره واستقامة منطقته وجراته في جهاده . وغبنه بين قومه فلا أحب أن أقول فيه لغير ضرورة من ضرورات البحث مقالا لا يوائم ذلك التسوقير ولا يناسب ماله عندى من القدر والرعاية .

أول كتاب قرأت للزهاوى كان كذب الكائنات أو رسالة الكائنات لأنها عجلة مختصرة من لقطع الصغيرة وكان ذلك قبل عشرين سنة (أى عام ١٩٠٧) وأنا يومئذ كثير الاشتغال بما وراء الطبيعة وحقائق الموت والحياة . ومباحث الدين والفلسفة . فراقنى من الرسالة سداد النظر وقرب المأخذ . ووضوح التفكير . والجرأة على العقائد الموروثة .

وكنت كلما عاودتها تبينت فيها منطقا صحيحا يذكر القارىء بأشعار ابن سينا ويزيد عليهما بالجلال والترتيب . ثم قرأت للزهاوى شعرا ونثرا وآراء فى العلم والاجتماع تدل على اضطلاع واستقلال ونزعة الى الثقة والابتسكار . وكان آخر ما قرأت له رسالة المجلد مما أرى ثم شعر ينشره فى الصحف المصرية من حين الى حين .

١ - ساعات بين الكتب ص ١٩٧ وما بعدها .

.. واذا قرأت مباحث الزهاوى برزت لك ملكته المنطقية
 لا حجاب عليها ولمست فى آرائه موطن التحليل والتعليل ..
 ولكنك تصل فيها الخيال كثيرا والعاطفة أحيانا .. وتلقت
 الى البديهة فاذا هى محدودة فى أعماقها وأعلىها بسدود من
 الحس والمنطق لا تخلى لها مطالع الافق ولا مسارب الاغوار ..
 فهو يريد أن يعيش أبدا فى دنيا تضيئها الشمس وتغشيها
 سحب النهار لا تنطبق فيها الاجفان . لا تتناجى فيها الاحلام
 وليست دنيا الحقيقة كلها نهارا وشمسا . ولكنها كذلك ليل
 وغيب لا تجدى فيها الكهرباء .

وهكذا يعارض العقاد آراء الزهاوى فى العلم . وهو ما كان
 موضع النقد عند كثير ممن أرخو للزهاوى أو كتبوا عنه .
 يقول سليم طه التكرينى المحامى ببغداد (١) لقد بلغ من هوسه
 بهذه العلوم أن راح يناقض البعض منها ويرد على أصحابها ..
 ولكن العقاد لا يلبث أن ينصفه فيقول : الاستاذ الزهاوى
 صاحب ملكة علمية رياضية عن طراز رفيع .. وأنه يصيب فى
 تفكيره ما طرق من المسائل التى يجترأ فيها بالاستقراء
 والتحليل ولا تفتقر الى البديهة والشعر . فمن ينشده
 فلينشده عالما ينظم أو يجنح الى الفلسفة فهو قمين باصفاء
 اليه .. واقبال عليه فى هذا المجال .

والزهاوى الى هذا صاحب قلم وناثر ولغته قوية ممتازة ..
 وقد كتب فى الهلال (نوفمبر ١٧٢٦) تحت عنوان هل تدوم

بهذه الأثر ٠٠ فقال : ان الرماد اندي نراكم فى مكان
الحريق الهائل ثم يخل من جمره اذا نفع دينها المافخ تأججت
من جديد فكانت قوة كبيره تستطيع عمل شئ حذل ٠ وهكذا
كان الامر فان الغازى مصطفى كمال نفع فى درع الامه التركيه
من روحه ٠٠ تلك الروح الكبيره ٠ وهو بمعزل عما كانت
تكيده له الخلافة فى دارها حتى احيها ورأب صدعها وسترده
بما جنده من فلل الجيش المدحور ٠ وهو لا يملك يومه لا
عزمه ما احتلته اليونان من بلادها وكان الفوز بهرا ٠ ويعطى
هذا لنموذج رقابة ذهن الزهاوى وجمال أسلوبه النرى .

ويعزى اتجاه الزهاوى الى الفلسفه والى ادماجها فى شعره
ونسره انه كان مدرسا للفلسفه الاسلاميه فى الاسنانة ٠ هذا
فضلا عن انه بطبيعته فينسوف فيه حب للجدل والمناقشه ٠٠
وفى أسلوبه ذكر الاسباب والنتائج ٠ ولقد كانت لغته دائما
اقرب الى لغة العلم ٠ وقد أحب مجسلة المفتطف لموضوعاتها
العلمية ٠ ومؤلفات فانديك فى الفلك وكتب الدكتور ورتبات
عن الفسيولوجيا والنشريح ٠ كما أنه قرأ مترجم الى التركيه
البؤساء لفكتور هيغو . كما قرأ أناطول فرانس وشكسبير
وجوته وتولستوى ٠ وكان معجب بشاعر الانزاك الكبير
بامق كمال ٠

ومما يتصل بعمل الزهاوى الناصر أنه عين فى عهد الاحتلال
رئيسا للجنة تعريب القوانين التركيه فعرب ١٧ قانونا بين
صغير وكبير ٠

الزهاوى والمرأة

من أبرز معالم حياة الزهاوى وشعره اشتراكه فى قضية المرأة ودعوته الى حريتها وتعليمها وسفورها .. وهو أول شاعر عربى يعطى هذه القضية قدرا ضخما من الاهتمام ويتكلم عنها بحرارة . ولم يسبق فى ذلك الا بقاسم أمين . ولقد بدا الزهاوى دعوته لتحرير المرأة منذ عام ١٩١٠ وقد تحصل فى سبيل ذلك مشقة كبرى وواجه هجوما صاخبا من معسكر الرجعيين والمتزمتين . فقد كان لدفاع (١) الزهاوى عن المرأة فى المجتمع العراقى وفعا أشد من وقع كتابات قاسم أمين فى مصر وأبعد منه أثرا .. فقد أنفق نصف قرن أو يزيد وهو يدافع عن المرأة ويوالى حملته بايمان وحرارة . وقد طالب الزهاوى بتعليمها وسفورها ومساواتها بالرجل فى بيئة كانت تسام فيها المرأة كما تسام الانعام . وقد نقد الحياة الزوجية فى البيئة العربية وهاجم الطرق الخسيسة التى يجرى الزواج بموجبها وأمن بأن الحجاب من أسباب تأخر المسلمين .. ومن جملة شعر الزهاوى يظهر انه عالج خمس قضايا للمرأة .. السفور ومكافحة تعدد الزوجات ونقد طريقة الزواج والدعوة

الى تعليمها ومشاركتها في الحياة العامة ومساواتها بالرجل
يقول :

انما المرأة والمرأ سواء في الجدارة
علموا المرأة فالمرأة عنوان الحضارة
يرفع الشعب فريقان اثاث وذكور
وهل الطائر الا بجناحيه يطير
كيف يسمو الى الحضارة شعب
منه نصف عن نصفه مستور
ليس ترقى الانساء في امة ما
لم تكن قد ترقى الامهات
اخر المسلمين عن اعم الارض
حجب تشقى به المسلمات
لا يقى عفة الفتاة حجاب
بل يفى فيها تثقيفها والعلوم
مذبوا ارواح العذارى لتبقى
سالمات من العذارى الجسوم
اسفري فالحجاب يا ابنة فهد
هو داء في الاجتماع وخيم
انزعيه ومزقيه فقد انكره العصر ناهضاً والحلوم
اسفري فالسفور للناس صبح زاهر والحجاب ليل بهيم
من بعدما انتظرت حقاً اباً
ثارت فمزقت الحجاب اباً

عسوية عرفت أخيرا
 كيف تنبذ ما أرابا
 كاذن الحجاب يسومها خسفا ويرهقها عذابا
 وسيطلب التاريخ من ناس
 لها ظلموا حسابا
 سألت لها حربة منهم
 فما لقيت جوابا
 وليس من الدين الحجاب وانما
 وجعنا الى أحكامه نتفهم
 فان كان نص فائل بوجوبه
 ولا نص فيه حسبا أنا أعلم
 تأوله حتى نوفق بينه
 وبين طريق العسلم فهو المقدم
 ليس ترقى لابناء في أمة ما
 لم تكن قد ترقى الامهات
 أخر المسلمين عن أمم الارض
 حجاب تشقى به المسلمات

وهذه النماذج منتقاه من شعره على مراحل وفترات مختلفة
 من حياته .

ويسجل الزهاوى فى بعض رسائله أثر قضائية المرأة
 ويقول : وعزلت عن وظيفتى فى كلية الحقوق بسبب دعى

عن حقوق المرأة . . . وأدى لدى نظمت مصيدة امراءه لجندى
يوم لم يكن فى بغداد شاعر يعترف لشعره فى اصلاح
المجتمع .

ويتوالى الزهاري فى موصع اخر من رسائله بصورة اثر
لعمره فى المرأة فى ولايه ناظم كانت جسر يده المؤيد فى مصر
قد نشرت لى نقالة أدافع فيها عن حقوق المرأة فقامت حول هذه
المقاله ضجة كبيرة وأخذ التعصبون يرغون ويزبدون يندمون
بالسب واللعن . وكان التعصب فى بغداد يومئذ ذا صوته
فلم يسمع الوالى غير عزلى من وظيفتى ارضاء للرأى العام .

كما أدى قيام الفيمامة ضد الزهاوى عليه الى لزوم داره
خوفا من القتل بعد أن تعرض به دماء الشعب .

ولقد كن الدعوة الزهاوى أثرها فقد نهيت صدى ايجابيا
بالرغم من حملة خصومة عليه من أجلها . . . وفتحت الباب أمام
تعايم الفئاة فى العراق .

فثون شعره

أصدر الزهري ديوانه عام ١٩١٢ (طبعة خير الدين الزركلي
بالمهرة) وقد ضم شعرة من عام ١٢٠٧ - ١١٤١ هجرية
(١٨٨٨-١٩٢٤) في خلال مسسته وبلاطين عما وقد كتب على
صدره هذه البيت

إذا الشعر لم يهرزك عند سماعه

فليس خليقا أن يقال له شمس

وقد ضم الديوان خمسة عشر بابا تعطي صورة التجديد
وحسن التنسيق عند الزهري .

- ♦ الشبهات : في القرام
- ♦ هواجس النفس : في مطالب فلاحية
- ♦ احديث شجون : في القصص
- ♦ الدم والنار : في الحروب
- ♦ المشاهد : في الوصف
- ♦ السموع الناطقة : في المراثي
- ♦ أبنيذ المجروح : في البث والشكاه
- ♦ القارعات : في البحث على التقدم
- ♦ الشعر والشعراء : في القرى والشاعر
- ♦ الليل والنهار : في الاجتماع

• وحى الضمير : فى الوطن

• المرأة : فى النساء

• فاق الصباح : فى الترحيب

• بقايا الشفق : فى مطالب نيتى

• الخطرات : متفرقة

وتعطى هذه الابواب صورة شعر الزهاوى كله بعد اصدى
هذه الديوان وهو فى سن الستين . وقد استطاع ان يضرب
فى جميع مجالات الشعر وفنونه وآرائه محبا ومسلحا جندى
رسميا وراثيا ووطنيا .

وقد ظل الزهاوى فى شعره نابض بالحركة حتى بلغ سن
السبعين . . وشارك فى محاربة الظلم والاستبداد والرغبة فى
رفى الشرق ومقاومة الخرافات التى دخلت الى الاسلام ومقاومة
الخرافات التى دخلت الى الاسلام ومقاومة الحجاب وسيلطان
رجال الدين وان كان كل ما قاله لم يكن جديدا . . الا انه
سبق زمنه بمانه عام . ويقدم الشعراء جميعا فى هذا المجال .
وفى الزهاوى روح من دعوات جمال الدين الافغانى وبحمد
مبدىه للاصلاح السياسى والدينى وفيه من الكواكب حملته على
لاستبداد .

والزهاوى يرى كل فصيدة هى القصيديدة الاولى ولاحيره
فلا يبالي أن يكرر فيها ما قال فى قصائده أخرى
ويقول فى مقدمة ديوانه : ربما عرفت المطالع شعرى حله
بلادى السياسية ودرجتها من الرقى فى السنين الى عشت

فيها وعرف عن حيائي ما لم يعرفه من اني اجم الصويلقي
واعذب شعر الزهاوي دعوة ابي الحريه والسعيد وبور
دائمه على الجمود والتفانيد والبيود الفريه والاجتماعيه فقد
ان يؤمن بان الشرق لا يتم له التقدم الا اذا تحرر من عبده
البيود التي غلت تفكير ابنائه

وبيتاه هذين يرمزان ابي مذهب وانبجده لله :

سئمت لل قديم عرفته في حيائي

ان كان عندك شيء من الجديد فهات

غير اننا اذا ذهبنا نقارن شعر الزهاوي في ديوانه هذا مع
ديوانه الاول الذي أصدره عام ١٩٠٧ أي قبله بأكثر من خمسة
عشر عاما وهو الكلم المنظوم نجد فارقا بعيدا . فقد كان ديوانه
الاول مجموعة من القصائد التي قالها أيام الاستبداد ونشرها
في الصحف المصرية بتوقيعات رمزية خوفا من السجن .
وكان الزهاوي راضيا عن الاتراك والسلطان في أوله الامر
ثم تغير رأيه عندما بدأ الاحرار الاتراك دعواهم فاصبح موضع
رقابه شديدة مما حمله الى العودة الى العراق مخفورا .

ولما راتب الغدر في القوم شيمه

وان مجال الظلم فيها يوسع

وان كلام الحق ينبد جانب

وان اراجيف النورية تسبع

خشيت على نفسي فأزمت رجعه

الى بلدي من قبيل اني اصنع

وهل راحه فى بلده نصف اهلها
على نصفه الثانى عيسون تطعم
نراقب افعالى وكل عثمسيه
الى ويلدزه عنى التقسارير ترفع
وبقول الزهاوى فى المقارنه بين الشرق والغرب
الشرق ما زال يحبو وهو مفتض
والغرب يركض ونبا وهو نعان
والغرب ابدؤه بالعلم قد سعدوا
والشرق اعملوه فى جهل كما كانوا

الزهاوى شاعر القومية العربية

الزهاوى «شاعر الحرية» ما فى ذلك شك ولا ريب . لقد عاش للحرية حياته يوما يوما وساعة ساعة . . . كان كل يومه وقودا لهذه الشعلة المقدسة . شعلة الحرية . فقد كان يحب الحرية حبا يفوق كل حب ويدعو اليها ويطالب بها ويفنى لها . وهو اذا حرم منها ضاق بها وظل يصرخ صرخاته القوية لجيرة .

والزهاوى شاعر القومية العربية غير مدافع . . حمل لواحقا ودعا اليه منذ خمسين عاما وضح بالدعاء .

ولقد عاش الزهاوى فى عصر عبد الحميد . . وعاداه . . . ارسل اليه قصيدة صائحا بدعوة الحرية فى وجه الاجل المستبد الذى كانت الناس تخشاه وتحمل فى سبيل صيحاته كل اذى وسجن ونفى وخراج . . ولكنه ظل مؤمنا بدعوته . . ومضى مواصلا ايده . . فاذا ضاقت به العراقى عن أن يمشى فيها كلمة الحرية أرسلها بانبريد الى مصر لتتشر فى صحفها بمضاء مستغار .

واذا قلبنا ديوانه وجدنا شعر الحرية هو أغلب شعره وأعمه ، وهو أصدق شعره وأشدّه أثرا فى النفس
أبناء دجلة والفرات نيسام
عن حقها وترها الاحلام

وإذا الحقائق لم يجد في أمه
 سنداً تقوم مقامها الأوهام
 إن العسراق به يعيش لشهوة
 شعب يسام الدل ثم يسام
 القوة حتى صار فيهم طابعا
 من طول ماصفعتهم الأيام
 لو كلفوا مشيا على رأسهم
 لمشوا كان رؤوسهم أقدام
 فهو يدعو أهل العراق الامجاد في صيحة جسارة قوية إن
 مهوا ولا تحتلوا الدل ولا ترضوا به .

لا ينبغي استقلاله شعب له لم يستعدا
 شعب إذا لم يستبد به حكومته استبدنا
 شعب يلم بشره وذا ألم فلا مردا
 شعب يظن الجدد هزلا كله والهزل جدا
 شعب يعرض للطعام بكل يوم منه خبدا

ولكن الشعب كان قوى الشكيمة لم يغفر للاستبداد ذله
 فنار ثورة حامية حرقت على الدخيل الاخضر واليابس
 وهو لا يدعو بغداد وحدها الى الحرية ولكنه يدعو الشرق
 كله .

عظيم على الافكار في عصرنا الحجر
 أما كل انسانه بآرائه حمر

وهل فله الشعب المريد انطلاقة
من الاسر ان الحجر فيه هو الاسر
وهل نافع تحريريه من اسـاره
اذا لم يكن فى راسه حرر الشكر
واى رفى فى الحيااة ميسر
لقوم يقول الحق ما أن لهم جهر

يرومون . . . للافسواء كما يحضفهم
وذاك لبحرى ثم ذاك هو النـكر
اذا الشرق لم ينفع من القطر غله
بأكباده المحرى فلا نزل القطر
لقد طال ليل الشرق بعد نهـاره
أما بعد ليل الشرق محلولا فجر
ولا بد من أخذ العروبة حقها
وان حالت الاقدار أو خذل الدهر

وهو فى هذا يدعو إلى القومية العربية مؤمنا بها
وكلما جاءت المناسبات ذكر العراق شعبه المكبل بأقيود
ودعا الى الحرية فى قوة

«عيسى بن إسماعيل بن علي بن ياسر بمملكة
وليس فيه لجرح سدا تضيـميد
حيث النخيل بسعيد من تولفه
وعن مواطنه المحرر تشريد

الحق يوطئ بلادهم مستحقاً .

وما هنالك يحمي الحق بصنيد

بانت مطالبه الاقوام . فاطبسة

ومطلب العرب المهضوم مردود

ولا بتلك بلاد العرب من جندل

ولا بتلك بلاد العرب مسمود

وهكذا ينكسف انزهاوي في كل شمعه على انه ليس شاعر

الحرية فحسب ولكنه شاعر القومية العربية لما يؤمن بها

العرب ويعملون لها .

وهو محب لوطن . صديق الحب . يثره هوانه و يواجه

حكاه بالنقد

افديك يوطن سباب برصه

وعرجت فيه يافع وعلام

باندل لا ارضى وان سددت به

روحي وارضى بالحمص رؤاما

حي الذين اذا الهوان اصبهم

تخذوا الالباء من الهوان خصما

يا قومنا لا نفع في احلامكم

فخذوا الالباء من الهوان عصما

يا قومنا لا نفع في احلامكم

فخذوا الحقائق وابذوا الاحلام

في الارباب ان اكون محبة

في الحادثات ولا اكون حمام

والله يريد الظالمون لنفسهم

بالظلم من شر يلم سسلا

ولست اعتقد أن أدب القوة يمكن أن يؤدي بأقوى مما آداه
الزهاوى فى قصائده الحماسية النصارية لتي دعا فيها الى
لحرية ..

فهو حامل مشعل الحقائق يدعو الى نبذ الاحلام ولاوهام
وهو داخ دائما وأبدا لى الالباء من الهوان والى نبذ الرضعا
والتسليم والى قبول الحمام والموت دون الاوطان وحرقاتها
وكراماتها .

وهو فى أبان الحكم العثمانى يقذف الدولة العثمانية بأسواط
لمتهبه من شعره يسى بها ظلمت الليل البهيم الذى يعيش فيه
العرب

وما هى الا دولة مستعبدة

تسوس بما يقضى هواها وتعمل

تترفع بالاعزاز من كن جاهلا

ونخفض بالاذلال من كان يعقل

الا انما بغداد قد أصبحت بهم

يهددها داء من الجهل معضل

وقد عبثت بالشعب أطماع ظالم

يحملة من جوده ما يحمل

فتعسا لقوم فوضوا امر أنفسهم

الى ملك عن فعله ليس يسأل

فيا ملكا في ظلمه ظل مسرعا
فلا الأمن موقور ولا هو يعدل
ولعلها أول صيحة في الشعر العربي لمواجهة ظلم عبد الحميد
يرتبط فيها الزهوى بصاحبه الكواكبي صاحب كتاب مصارع
الاستبداد .

نحن في غفلة نيسام وعنا
نائبات الزمان غير نيسام
نحن في دولة ندارتها الله
تبيع المحظور للحكام
وعدوها بالاصلاح جم ولكن
لا يجوز الاصلاح حد الكلام
نحن قوم قضت ارادة شخص
واحد ان نعيش كالانعام
ايها الظالم اغتصبت حقسوقا
قد حبساها الانام رب الانام
وما اظن ان السلطان عبد الحميد واجه من الهجوم مثل
ما واجهه به الزهاوى شاعر الحرية والقومية العربية
قد اسمعتك انينها الاوطان
بضعيف صوت ملؤها الاشجان
ممت اليك يد الشكاة لانها
قد عاث فيها الظلم والعدوان
ادرك بها الضعفاء واستمجل فقد
عز النصير وقله الاعسوان

ان كنت تنصرها ونحمني حوصصها
 عن غاصب فلفسد آتى الابان
 أدرك بنصر امر قومك أنهم
 ظنموا فريع الشيب والشيبان
 وهو ما يزال يحمل على لظنم حملات متعددة . . لا يتوقف
 ولا يتراجع . . وانما يمضى بفلمه النصارى يعدد انام الظنم
 وشره ويدعو الى العدل الذى هو الحرية
 خفف من الظنم ابفساء وتهوين
 فالظنم يفتلنا ولعدل يحيينا
 يا مالك الامر ان الناس قد ضجروا
 عائل برفق رعائنا المساكينا
 لهسوت عنا بما أوتيت من دعة
 فأبيض ليلك واسودت ليالينا
 ليست طريقك محمودا نغبتها
 فابداً اذا شئت فى لأحوال نحسين
 رعو من دعاة السلام . يكره الحرب وينهر عنها
 الحسرب للمتهورسين
 هى الطريق الارعسرب
 الحرب لولا أن تحس ضرورة لا تشهر
 تفنى الذى هو ظافسرب
 وتذل من لا يظفر
 فى الحرب لا تلقى من الفتنة من لا يخسر
 فاذا أهل الدستور الجديدة عام ١٨٠٨ استقبله الزعماوى

فرحاً به مضيق موقف حيله جديده للعرب وباب جديد للحرية

البرق اعشى لنا بسرى بها امنى

أرواحنا بعد طول الخوف والرهيب

بسرى كما تبتغى الأمل صادقة

احبها الناس من قاصى ومقرب

صاحت لفرحة هذا العيد أفئدة

كانت تن من الارزاء والذروب

صاحت سرورا وكانت قبل فرحتها

ندعو على كربها بالويل والحرب

ويمضى الزهاوى داعياً الى اسحريه مؤمناً بها لاينقلب عن

الركب فاذا بدا العرب يتحررون من نير الشرك ونفى الشرك

تكدور العرب وجههم بالحقائق

وما فنه الاصلاح الا كبارى

يعزل بالفطر الذى لبس يزل

نهم انر للجور هى كل بلدة

يمثل فى أفعالهم ما يعمل

اذا نزلوا أرضاً نقم خطبها

كانهم فيها الميلاء الموكل

وتبلغ الزهاوى قمة ايمانه بالحرية فى قصيده الذئبة

يرنى بها من شفقهم أحمد جمال باشا السفاح الوالى لتركى على

سوريا من أحرار العرب

على كل عود صدى صاحب و خليل

رنى كل بيت رنة حو حويل

وفي كل عين عبرة مهـرقة
 وفي كل قلب حسرة وغليـل
 عـسـلاها وما غير الفتوة سلم
 « شباب نسأى للعلـى وكهـول »
 كأن وجوه القـوم فرق حـذوهم
 نجوم سما، فى الصـباح أقول
 كأن الجذوع القـائمات منـابر
 علت خطباء عودهن تقـول
 لقد ركبـوا كور المطايا يحـثهم
 الى الموت من وادى الحياة رحيل

اجالوا بهاتيك المشـبانق نظرة
 يلوخ عليها اليأس حين تجـول
 وبالناس ان حفوا بهم يخفرونهم
 وقوفا وفي أيدي الوقوف نصـول
 دنوا فرقوها واحدا بعد واحد
 وقالوا وجيزا ليس فيه فضـول
 فمن سابق كيلا يقال محـاذر
 ومستعجل كيلا يقال كسـول
 ولله ما كانوا يحسـون من أذى
 اذ الارض تنسأى تحتهم وتزول
 واذا قربوا منها واذا صعدوا بها
 واذا مس هاتيك الرقاب حـبـول

وما هي إلا رجسه بعنرى الفتى
مفجأة والرأس منه يميل
مشوا في سبيل الحق يحذروهم الردى
وللحق بين الصالحين سبيل
ستبكي على تلك الوجوه منازل
وتبكي ربوع الصلى وطلول
وأعظم بخطب فيه للمجد شقوة
وفى جسد العلياء منه نحول
سرت روحهم تطوى السماء لربها
وما غير ضوء الفرقدين دليـل
ولله عيدان من الليل أثمرت رجالا
عليهم هبة وقبول
هوت أهم ماذا بهم يوم صلبوا
على غير ذنب كى يقال دخـلوا
سوى أنهم قد طالبوا لبلادهم
بأمر اليهم فخرو سـبـلوا
ونادوا باصلاح يكون الى الصلى
وللتنجح والعمران فيه وصـلوا
فما رد عنهم عنهم بالشفاعة عصبة
ولا ذنب عنهم بالصلاح قبيل
وهكذا يصل الزهاوى الى القمة فى إيمانه بالعربة ونداهه
عن القومية العربية

وهو لم يقف عند حد مقاومته للعثمانيين ولكنه ظل يهاوم
الانجليز في العرنق في كل مناسبة يحس فيها بأنهم يفتون
حرية الشعب أو يفرضون حقه الشرعي

تلفن معاهدة وأخرى تعقد
والشعب يستفتى لها ويهدد
والشعب يطرى للجسالة خنجرا
في صدره عما قريب يغمد
وكان يوم الفاصلين لحقهم
ليل وهذا الليل بحر مزبد
والشعب بالقيد الثقيل مكبل
حتى يكاد إذا تحسرك يقعد
للبعض كسوخ واطيء وللبعضهم
صرح كما شياء النعيم ممر

والزهاوى بعد هذا كله بشر فاذا أخذ عليه نقاده ضعفا في
بعض مراحل حياته أو موقفا هنيا فانما يجب أن نذكر أنه كان
يعيش في فتوة من أحلك الفترات التي كان يمر بها الشرق
حيث الاستبداد والاستعمار والبلاء كله يصب على الأمة العربية
من الترك والانجليز على السواء وان روح المقاومة الفعلية لم تكن
قد أخذت بعد صورتها الحية القوية التي نراها اليوم . فهو
بالنسبة لجيله في دعوة الحرية والقومية العربية سباق متقدم
من جيله وقد رجعت حرارة ايمانه وصدق كفاحه بما أخذ
عليه رجحانا كبيرا

بغداد في شعر الزهاوي

أحب الزهاوي بغداد حبا قويا عميقا صادق لم يغير ولم يتحول
وقد سجد في شعره في عهد الخواصع سمعته بالعراق وحبه له
ولكن حبه لم يكن تقليديا يصوغه مدحا . وإنما كان حبا بصيرا
يحمل معنى الإيمان بالوطن . والدعوة الى تحريره وتخليصه
من قيود الفكر وقيود الاجتماع وقيود السياسة .
وقد كان يكره بغداد أحيانا حين كان يحكمها المستبدون
من الأتراك :

كراهيتي لبغداد في شدة وازدياد
أبدل لي قربها بالبعد
كراهتها نفسي وملء فؤادي

وهو في هذه الفترة يسميها دار الظلم والجهل والفساد .
ويقول انه في كل يوم مصيبة تتحدد ومشكل يتولد
أين ذهن قد كان يشبه برق
سرعة في فهم الأمور وخف
حرقته نار التوقد حرقا
أنك اليوم لو تفتش تلقى
حجرة منه في ركاب الرماد

ذلك أن الزهراوى الانوف المعتز بشخصيته كان يود أن
يختار لعمل ممتاز يليق بمكانته وشعره .. فهو فى غير مكانه
نم هو يلقى حملات الخصوم من حوله فلا يلبث أن يقول :

سجن بفساد فى الحقيقة قبر

موحش فيه تدفن الاحياء

عجرات فى جوفها ظلمات

فهى فى الليل والنهار سواء

وقد ظل يحس بأنه دون قدره .. وانه لم يعط ما كان
خليقا به .. فحمل على العراق فى صورة حكامها من العثمانيين

اننى اليوم فى بلادى اسير

ليت شمسى متى يكون فكاكى

وفى ابان هذه الازمة النفسية فكر فى الهجرة الى مصر

فنظم قصيدته الخماسية

« أنت مصر ملجأ الاحرار » وفيها يقول :

شاعر بالعراق ينظم شعرا

فيرى دون نشر ما قال عسرا

ليهادي به على البعد مصرا

حيث يلقى الشعر الملهب نشر

ان مصر ريحانة الامصار

تبلغ النفس عند مصر منساها

طيب الله بالسسلام ثراها

بلدم حبيب النجاح سقاها

يوجد البحر مائتاً في ذراع
أنت يا مصر ملجأ الأحرار
كان ذلك في أوائل القرن العشرين .. عندما فكر الزهاوي
في الهجرة من بغداد إلى الهند . وخرج غاصبا ولكنه لم
يثبت أن عاد بعد قليل إلى بغداد
وكنت هيبت فبذل سنين مصرا
فلم أهدأ وفضلت الأياها
ذكرت موطني وذكرت أهلي
وليلي والصباح والشمس
وقلت لقد نأت ببغداد عني
فليت الدهر يمنحني اقترابا
ولو أنني رجعت إلى بلادي
لقبيلت المنازل والترايا
وهكذا يبدو حبه لبغداد قويا دافقا حتى أنه لا يلبث أن
يقول :

اني اذا احتاج العراق فيالحياة له أجود
ان لم اذد أنا عن حقوق للعراق فمن يزود
ثم يعتدل رأيه في العراق بعد أن تتكشف غمة الحسك
العثماني ويبدأ الحكم الوطني بعد أن يلى الملك فيصل الحكم
في العراق :

قد لقت صابا في حياتي بالعراق ، وذقت شهدا
ولقيت فيما قد لقيت بموطني بغضا وسعدا
ورأيت بعد المد حزرا ثم بعد الحزور مدا

وقد شارك الزهاوى فى الحياة السياسية فى العراق
مشاركة فعلية حتى لينسجل ديوانه جانباً كبيراً من صورته
الحياة . . . صور فترة الظلام التى سادت العراق أيام عبد الحميد
ثم كيف تكشففت السحب عند بدأ عهد الدستور فى الدولة
العثمانية ثم كيف بدأت العراق تقاوم الاحتلال البريطانى فى
العراق ويقيم الحكم الوطنى فيه

ونظم الزهاوى شعراً فى استقبال فيصل وفى استقلال
العراق وفى الحياة النيابية وشارك فى استقبال غازى وباك
حكمه .

وقد سجل الزهاوى فى مذكراته التى عرفت باسم رسائل
الزهاوى حالة العراق عند مولده عام ١٨٦٣ . فقال : كان عدد
سكان بغداد فى العهد الذى ولدت فيه مائتى ألف نسمة تقريباً
وحالتها الاجتماعية يومئذ منحلة ولا غاية لأكثر رجالها إلا
التزلف الى الحكام الاتراك وولانهم ولا منافسة الا فى الرتب
والالقب .

وقد بلغ عدد سكانها عام ١٩٢٢ (وقت تحرير مذكراته)
٣٥٠ ألفاً وكانت العراق فى وجه غير ان الجهل كان يسود
أكثر أهلها ولم تكن فيه يومئذ هذه المدارس الحديثة المنتشرة فى
أنحائها الا الكتاتيب والمدارس القديمة الدينية وكان المقصود
شديداً .

وفى بعض شعراء الزهاوى يذكر العراق ويقول :

أنا والحق في العراق مضاعفان
 وما فيه غيرنا بمضاعف
 وإذا جرت البقايا شسقاء
 لمقيم فتلك شر البقاسخ
 وقد صور الزهراوي بغداد في أكثر صورة جميلة رائعة
 مسجلا أنها هي التي أوجت إليه الشعر :
 ملك في بغداد على ضفة دجلة سماء صافية زرقاء يلعب في
 ليلاها النجوم فرادى وأزواجا واشتاتاً وركاما وأرض خضراء
 أديمها هي منبت جسدي وعقلي وأصعق يوالون وأعداء يناوون
 وجهاد مستمر وآمال بيض ويأس أسود .. وفساد في النظام
 وعادات سيئة تضر بالمجتمع ونفس في حرة لا تقدم على الضيم
 كل ذلك قد انطقني شعرا هو شعور كان يجيش في نفسي قبل
 أن أنطق به ..

بين الزهاوى وخصومه

عاش الزهاوى حياته فى حرب متصلة بينه وبين خصومه
هو بعناده وجراته واندفاعه فى اعلان الراى الجرىء وخوض
معارك الحرية ومهاجمة العسادات المألوفة يثير فى كل يوم
خصومة مع الحكام والولاة ورجال الدين والمحافظين . ولم
يكن الزهاوى يصبر على النقد او يبتسم له او يسخر منه .
وانما كان يواجهه فى غيظ وكراهية والم . يبلغ به احيا
حد البكاء . . وقد يدفعه الى التفكير فى الهجرة والخروج من
ارض الوطن .

وقد احتال لاعلان آرائه بكل وسيلة . . كان ينشر آرائه
وقصائده بتوقيع رمزى . . وكان ينشرها فى غير صحف
العراق . . ولكنه لم يكن يتنازل عن تصميمه وهو لم يعيش
يوما دون معارك او خصومات مندفعاً فى حماسة وعاطفة
وعناد . . وقد سجل انه كابد فى حياته مزيداً من الشقاء
والاضطهاد . وأنه رأى عادات سيئة وفساد . . وأن نفسه
الحرّة دفعتة الى أن يقاوم هذا كله ويعمل على ازالته . وقد
شغل الراى العام بآرائه الجديدة الجريئة تخلق خصومات
ناقده كانت تواليه بالتقريع والهجاء .

وقد صور الاستاذ ناصر العاني في محاضراته عن الزهاوي هذا الجانب من حياته فقال : وأغرب ما في أمره ان اندفاعه المشهور وحماسه التي جاز خبرها حدود الرافدين . وقد اعتراها صمت طويل وصحب هذا صخب عليه . وتقول تضارب في وطنيته وقوميته . وقد عزز هذا القول . سندده السلطة المحتلة من مناصب للزهاوي قد لا تكون أعلى منه مقاماً ولكن الظروف التي عهدتها اليه نابية جائرة فصارت وبالا عليه . وظل في حيرة من أمره وصار الناس ينظرون اليه بعين الشك والارتياب ولا يطمئنون اليه فكثرت أعداؤه ومقنعاوموه وكثر الذين يريدون أن يوقعوا به .

ولم يكن ليحتمل ما وقع له فظل مضطرب يخشى الناس ويتوهم أنهم سيوقعون به لا محالة . . . وكأنه أدرك فشله بالمشاركة بأقصى محنة عرفتھا (١) بلاده . فحاول أن يوذ بالتقاليد التي رزح فيها الناس والمشكلات الاجتماعية التي تحفهم فحمل على العقائد البالية . ودعا إلى التحرر الفكري . ومساواة المرأة بالرجل . ولم يكفر هذا سيئته عند الناس . فقد حاول أكثر من مرة أن يهجر العراق بعد أن توالى عليه النقد والتقريع . . فقرر السفر إلى سورية بعد سنتين ذهبت على الثورة ولكنه لم يسافر إلى سوريا وسافر إلى مصر .

(١) ثورة العراق عام ١٩٢٠

وهو فيما يتصل هذا قال قصيدته :

سأرحل عن بغداد زحله عائف
فقد طال في دار الهوان قعودي
وأفرح من ألى ومسالى وموطني
وما كان لي من طارق وتلبس
ولم في عمري كبغداد منزلا
به العلم لا يجزي بغير جحود
رأيت بها بؤسا وشاهدت نعمة
فلم أسترخ من شحات وحسود

يقول الاستاذ ناصر : ولم يستطع الزهاوى أن يطيل مكنه خارج العراق فكانت غيبته استجماما فصدفت الناس عنه قليلا فأستطاع بعد عودته أن يخوض غمار الاحداث العامة وأن يوقف نفسه لها فيثيرها ضجة على الحكومة .
والواقع أن الزهاوى كانت له مع اهل وطنه مواقف لعلها هي التي دفعتهم الى الحماسة عليه . ولعلها هي التي جعلته يسرف في الدعوة الى التجديد والحرية وتحرير المرأة .
ومن أهم هذه المواقف : مديح الزهاوى للسلطان عبد الحميد أولا ثم حملته عليه . . وفي ديوانه الكلم المنظوم قصيدة يقول فيها :

لسلطاننا عبد الحميد سياسة
طريقتها في المعضلات هي المثل
ماذا على السلطان لو أجرى
الذي يشताقه الاحرار من اصلاح

سللت لنصر الدين سيف وعزومة
 قللت به ما لم يكن فيه سهلا
 فجهزت جيشا لنجهد عروما
 قهرت به ذاك العدو الذي ولى
 ومن هذه المواقف قصيدته في مدح الانجليز والتي جعل
 عنوانها ولاء الانجليز (١) وفيها يقول :

وجئت الانجليز أولى احتشام
 أباء الضيم حفاظ الزمام
 أحب الانجليز واصطفاهم
 لمضى الاخساء من الانام

ولقد كن لهذه القصيدة أثر مظلم شديد الظلمة على حياة
 الزهاوى فقد لحقه عارها طوال حياته وكانت كما قل الاسناد
 ناصر من أسباب حملة خصومه عليه وعجزته .

وقد كتب الزهاوى فى رسائله (٢) معلقا على هذا الحادث
 الخطير فقال : لما ذهبت الى الاستانة واختلطت بالترك الفتيان
 أبعدت بالشجهر ونشر القصائد بأسماء مستعرة فى أهميات
 الصحف المصرية . وقد ذهبنا فى حرب الانجليز والبوير
 جماعة من الترك الاحرار تمنى للانجليز العوز فى محاربتهم
 وذلك بفرار من الحزب المناوى لعبد الحميد . . يريدون بذلك
 أن يعضدهم الانجليز فى طلب الدستور . وكتب نقيب هذه

١ - ديوان السليم المنظوم

٢ - الكاتب المصرى - ديسمبر ١٩٤٦

الغاية القصيدة أمدح فيها الإنجليز وأشدو بقوة أسطولهم . وقد نشرت في أول ديوانى (الكلم المنظوم) والى الآن يعيبنى ناقدى على هذه القصيدة . ولكن من كنت يومئذ أعرف أنه ستحدث حرب عالمية ويحتل العراق . هذا ما لم يخطر فى بال أحد . وهو دفاع ضعيف ولاشك . . . ولعل الزهاوى قد حاول بعد ذلك أن يدفع بشعره فى مجال الكفاح الوطنى ليغطي على عيبه القصيدة وهو أن كان قد رنى بعد ذلك أحرار سوريا الذين شفقهم أحمد جمال السفاح فإنه صور الثورة بصورة الوبال على البلاد .

وقد كان مما أخذ عليه انه قعد عن الثورة العراقية الضخمة فلم يتناولها بيت واحد من الشعر ، وقد كان مما أخذ عليه أنه قعد عن الثورة العراقية الضخمة فلم يتناولها ببيت من الشعر ومما يسجله الزهاوى فى هذا الصدد ويأخذه عليه خصومه انه عندما وقعت الحرب العالمية واحتلت الجنود البريطانية بغداد . . ارادت أن تأخذنى الى الهند أسيرا . ولكنى أبوزت ورقة فيها صراحة بأنى مكاتب جريدة المقطم فأفرجوا عني . . وكانت هذه الجريدة موالية للانجليز

وقد صور الزهاوى موقف خصومه منه فى بعض شعره :
 قالوا دخیل فی القریض فما أجساد ولا أجداد
 قالوا صغیر لا یعد من الفحول ولن یعد
 قالوا الى الاحسان منه غیره فی التذخیر أهلی
 وله جراء فیلسوف یوسع الادیان مجسدا
 ویصور خصوماته دائما بأنها فی سبیل الفکر

وما آن لى الى الجهل ذب
فيغريهم بنفسي ان يكيـدوا
سوى انى مخالفهم وانى
لكل خرافة منهم جـود
وقد توعدوه قوم بالقتل لجراة رايه ولكنه لا يبالي بهم :
توعدي بالقتل قـوم وانما
لكل امرئ فى الموت يوم وميقات
برئت من العلياء ان كان لى بما توعد فى القوم اللثام مبالاة
وربما اراد الزهاوى ان يكفر عن هذه الاخطاء فقال فى مقدمة
ديوانه الذى أصدره عام ١٩٢٤ « ما حمدت إلا من ظننت فيه
خيـرا للبلاد وربما خاب ظني فى بعضهم فكففت »
قد مدحت الذين لم يـسـتـحقوا مدائحي
أحسـبـوها على ضرورتها من قبائحي
ومن المأخذ التى سجلها هو على نفسه مدافعا عنها قوله
قد يعلق بذهن الشاعر شطر من بيت سمعه لمتقدم فيأتى
بعد سنين فى تضاعيف قصيدة له لاقتضاء المقام لذلك . وهو
ناس انه مقول . فتقوم عليه القيامة ويرمى بالسرقة . .
كما يعتذر عن بعض شعره الذى وصف بأنه نظم رگيك
أو سطحي المانى :

لا أغالى فربما قلت شـعـرا
لم آكن فى قرضى له بالمجـيـد
منه بكن بطرى ومنه عـسـوان
لم يحز رتبة الكعباب المزيـد

قلته لاهيا في شـ
 من هفوم الهوى وبرح الصدود
 يوم للخيد كنت أصـ
 ذا ليس يصبوا الى الحندان القيد
 ثم أرهفته فكان سـ
 ثم غنيته فكان شـ
 ثم صـ
 من فروق شر عبد الحمـ

الزهاوى والموت

للموت فى شعر الزهاوى مكان كبير .. فهو الرجل المجدد
 الذى حاول أن يقتحم فى الحياة بقوة .. كان يمسود فيذكر
 الموت ويخشاه ويقف عنده وقفات تختلف مع السن .
 وهو يصور فكرة الموت وما بعد الموت من أهوال :
 للمرأة فى الارض الفضاء مساكن
 انى مضى والقبر آحر مسكن
 والموت فوق جناادل وصفائح
 كالموت حم على فراش لين
 قالوا وراء الموت أهوال ولم
 أحفل بما قالوا ولم أتيقن
 ولعل هذا الموت مبدأ رحلة
 للروح خالصة وراء الأزم
 وكأننا صور الخيال لبرهة
 تبدو وتحفى فى شمساع الاعين
 قد سرت قبل للسورى متجلا
 ولعلنى بك لاحسق ولعلنى
 لا تسألونى عن مصير من انطوا
 أما بالمسواق لميت بالمتكهن

ويقول في موضع آخر من القصيدة :

تبني الحياة لها الصروح من المنى
والموت يهبط كل ما هي تبني
في الكون هذا كل شيء ممكن
الا البقاء فذاك ليس بممكن
لا بد من موت لمن هو عائش
فأشجع اذا قابلته أو فاجبن
ان الموت لرايض متحين
مماذا مراد الرايض المتحين

وهي قصيدة احساساتي يصور الموت في صورة أخرى .
وقد نظمها قبل موته بشهور قلائل وكان قد نزل من السيارة
عند باب السوق في بغداد يريد مقابلة أحد الكتبيين فسقط
مخمي عليه فحملوه الى داره فقال . . قلت لعل يومى قد اقترب
وهي آخر قصيدة قالها قبل موته :

قد أتى يا منيتى ان تصودى
بى الى حيث كنت قبل وجودى
ليس من هذا المسوت لا نفس بد
فهو للناس من تراث الجسدود
يا أماني فارقيني ويا نفس وداعا
ويا حساشه جسودى
لا تخافى على الموت سهلا
لا كما ينعتونه بشعبه
لا تخافى ليس على الارض ولا في سماءها بجديد

وليل الصبا يمير رخاء
 فوق ملحودتي فينفض عسودي
 لا أنيس ولا نسيم ولا نور
 يزيل الظلام عن ملحودي
 يوم لا تبصر الربيع
 ولا تصفى لانغام البلب الغريد
 يوم لا تطلع النجوم علينا
 باسمات من السماء كخود
 يوم لا يسفر الصباح لنا
 من جانب السماء قائماً كعمود
 يوم أيدي الردي تجردني
 من كل طارف وتليسد
 سيقولون شاعر غاب في اللحد
 وكم غاب مثله في اللحد
 سبقتني الى المقابر موتى
 أنا في الراحلين غير وحيد
 بعد نومي على فسراش وثير
 عن قريب أنام في أخدود
 لا أنيس ولا نسيم ولا نور
 يزيل الظلام من ملحودي
 غير أني ما أن سئمت حياتي
 وهبوطي وهادها وصعودي

ما بلغنا من اللبافات يا نفسى
 سنوى التفر بعد جهد جهيد
 يممى - يا نفسى السمسما فاني
 لا أرى فى الثرى طريق الخلود
 ان تلك السماء كالارض هذى
 حومة تسمى للكفاح الشديد
 لا يخيفك اللقواء بحرب
 هى بالشار تلتظى والحديد
 أنت حاربت... للتححرر أعواما
 طوالا فحاربى من جديد
 أنت فى الارض ما نطاطات حتى
 تخضعى فى السماء أو تستفيدي
 انما أنت للتمرد لا للخسف
 فالرسف فى ثقال الفيضود

وفى هذه القصيدة يبدو الزهاوى وهو على أبواب الموت فى
 عناده وشماسه وكبريائه .. مدلا بشعره وجهاده فى سبيل
 التحرير . كما يرى أنه بالرغم من بؤس السبعين لم يزل يحب
 الحياة ويرى أنه لم يقضى منها الا اللبانات اليسيرة بعد الجهد
 البهيد . وأنه سيحرم من أنوارها وضحاها وجمالها فى حسرة
 بالغة ..

ويتصل بالموت شعره فى الرثاء ويمتاز بروح حية وأسلوب
 طليق وفلسفة عميقة يتصل دائما بالموت والحياة

يرنى المتبنى فى لدلى الانقىة عىطوله (١) و كانه يدكم
نفسه :

ما أنت يا أحمد فى دولة الادب
الا الزعيم والا شىء عى العرب
وما تنبأت فى دين كما زعموا
بل فى الفصاحة سىاقا وفى الادب
فكان يوحى اليك الشعر عن شىء
و كنت فى قسادة الاداب أولهم
وكان يوحى اليك الشعر عن كى
و كنت أولهم فى الجفلس النجب
و كنت فى الشعر مثل الماء منطلقا
و كنت فى الحرب مثل النار فى العطب
كم حكمة لك سارت فى الورى مثلا
قد قلتها بلسان الشاعر الذرى
كم دولة للقريضة الناهض انقلبى
لكن عرشك فيها غير منقلب

وقال فى تأبين الشاعر عبد المحسن الكاظمى (٢) وهو من جيله
واحد من أربعة شعراء العراف الجوهرى والكاظمى والرصافى
والزهاوى :

صدق النعى ومات عبد المحسن
يا شاعر النبى ويا نفس أحرزى

١ - الرسالة ٧ يناير ١٩٣٥

٢ - الرسالة ١٠ يونيه ١٩٣٥

يا شعر ومحسن قد كنتما
 عمرا رفيقي. غربة وتوطن
 قد عشتما في كل منزلة معا
 كالفسوق بين اللامعين وأحسن
 أو زهرتين ولا أراني داريا
 أشسفت بالنسرين أم بالثنوشين
 حتى احتوته يد المشايخ بقتة
 بمخالب معشوقة كالحجين
 لمن الزعامة في القريض ومن لها
 بعد الحفي الشساعر المتفنن
 ملأت قصائده القلوب حسانة
 من بعد ما شسخت جفيع الالسن
 شعر يكاد يسيل منه لفظه
 مثل النسيدي من رقة فيهنني

عقيدة الزهاوى

كانت عقيدة الزهاوى هى بؤرة نقد خصومه .. والدعوى المنطلقة فى كل مكان .. كان الناس يقولون ولا زالوا : ان الزهاوى كافر وملحد وزنديق ولا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر . ولا بالبعث والنشور . وهو اتهم يوجه الى كل شاعر مجدد . وكل مفكر جريء وكل مصلح سبق زمنه .. او اديب اراد ان يهز حياة قومه الجامدة .. وما من كاتب او مفكر او شاعر لم اسمه وتآلف الا وكان له من خصومه مثل هذا الاتهام .

فهل الزهاوى حقاً ملحد . وما هى عقيدته .. لندع شعره فى مختلف مراحل حياته يكشف لنا عن الحقيقة .

فى ديوانه الكلم المنظوم الذى أصدره عام ١٩٠٧ وهو اول هواوينه يقص القصص على لسان امرأة تحدثت معه فى هذا الشأن قالت :

أأنت الذى بالزعم يذكر الناس
 اذا ما ردينسا لم نعد مرة أخرى
 فينكر بعد الموت عود حياتنا
 وتجدد فى أقوالك الحشر والنشرا
 فلو لم تكن دار يجازى بها الفتى
 تسامى اذا من بفعال الخمر والشمرا

ويرد هو في نفس القصيدة فيقول .

ندمت على ما كنت فرطت قبل ذا
يسوء اعتقاد لي الى الكفر جرا
لقد قلت قولا باطلا بجهالة
حنانك اللهم يا خالق غفرا
لقد ثبت عما كنت معتقدا له
فان لم تثب ربي على فواحسرا
شهدت بان الله ربي واحد
تنزه عن عيب يشمين له قدرا
اذا غنى الشيطان عن منهج الهدى
وكان يميني فانحرفت الى اليسر

وفي هذا اعتراف صريح من الزهاوي بانه انحرف في رايه
ثم عاد فاعتدل مرة أخرى . وفي عباراته معنى التوبة والرجوع
الى الحق الذي اعتقده بعد ان عرفه . وما على الزهاوي من
بأس في هذا ولا ضير :

ويقول في قصيدة : احساساتي

لست أدري اللغناء سئمضي
بعد ما نموت أم للخلد سود
انني في شك وان ملأوا سمعي
بوعس وروونه بوعيد
لا تثق بالجمهور يا عقل يوما
ان رأى الجمهور غير سيد

تاكل الارض كل حى فلا تبسـهـ
 على والد ولا مولود
 أم كلها بيد فتانى
 أم أخرى بمـداها للبيود
 سوف يفقو ركب الى الموت ركبا
 ثم لا أشدو خلفه بنشيدى
 وفى هذه القصيدة يعود الزمردى الى الشك فى الوحدة بعد
 الموت ولكنه لا يلبث أن يقول فى نهايتها :
 كلها مؤمن يسـمـح للرحمن
 فى ظل عرشه المـمـسـود
 اننى ما سـمـجت يوما لغير الله
 فالله وحده معبـودى
 وفى هذه الصراحة فوه وصفاء ووضوح :
 وهو فى أوضاع مختلفة من شعره يدافع عن نفسه هـنا
 لا تهم (١)

ما حياة قديمها غير باد
 لك الا تطور فى الجمـد
 ولقد بهلك الذى يتسوقى
 وقد لا يعبش أهل الحيد
 أى ذنب لى أن تباعدت
 المسـقة بين اعتقادهم واعتقادى

١- قصيدة تطور فى الجماد - الرسالة ٥٥ فبراير ١٩٣٣

كلما خالف الجماعة في الرأي
ي جرى رموه بالاحساد

وفي قصيدته الضخمة : نورة في الجحيم - يعاود تصوير
الجنة فيقول :

كان ايماني في شبابي جم - به نوره ولا نعيم -
غير ان الشكوك هبت فلاحيتي فلم يستقر بي الشعور
ثم عاد الايمان يقوى الى ان سلمه الشيطان الرجيم الغرور
ثم آمنت ثم انعدت حتى قيل هذا مذنب مغرور
ثم دافعت عنه بعد يقين من - يفعل الكمي انجسور
ونعمت في العقائد قبل هذا - لامة غرور

ثم اني في الوقت هذا - وفي
لسب ادرى - ذا اعتقادي الاخير

وتعطي هذه الابيات صورة الزهاوى وهو بين الايمان -
والاحاد باحثا حتى وصل الى الاقتناع عن طريق العلم والبحث
لا بالوراثة والتقليد وهو يقول في شأن عقيدة المقلد وعقيدة
البصير الباحث :

امن اكتفى بخرافه فهو مؤمن
ومن امترى فيها من الكفرار

ولدى النهاية جاهل في جنة
فيها النعيم وعالم في النار
ولم يدع الزهاوي خصومه ينطلقون في اتهامهم له فصرح
فيهم صرخة عارمة :

يا قسوم مهلا . مسلم أنا مثلكم
الله تم الله في تكفيرى

حكمة الزهاوى

قال نقاد الزهاوى أنه أشبه بالمعري من ناحية واسمائه
بالمتمنى من ناحية أخرى وأرادوا بذلك أنه يماثل المعري في
مصادمه الجريئة وآرائه في الحياة والموت وما بعد الموت وحرابه
على خرافات الدين وأوهام العامة . . . وأنه أشبه بالمتمنى في
اعتداده وكبريائه وفلسفته واعتزازه بشعره وكذلك حكمته
المنشورة في طوايا قصائده .

والحق أن الزهاوى كان فيلسوفاً وأنه كان يتعرض لغضايا
الحياة في قوة وجراءة حتى لم يكن أن يطلق على أدبه دالة أدب
القوة .

يقول :

ليس الحياة سوى زجاج دمه
يا للضعيف به من الجبار
يا شبيب لستم للزوغى فتأخروا
وبدار يا شبان تم بدار
انضوا القديم وبالجديد توشحوا
حتى م تخته الون فى الاطمار
وتحرروا من نير كل خرافة
خرقاء تلقى الزيف فى الافكار

وسحرروا من قيد كل عقيبة
 سوداء ما فيها هدى للسار
 ويصور الحياة والموت في صورة رائعة :
 لقيد راعى رزايا توالى
 والسرزايا اذ توالى تروغ
 ورايت الايام تاكل من أعمار
 فى الحياة وهى نجوغ
 وكان الارض التى هى وارت
 كل هذى القبور قبر وسيع
 وكان السوء قبة دير
 وكان النجوم فيها شيوخ
 كلما شاعلت المقابر حولى
 اخذتنى مهابة وخشوع
 ليس للقادمين منا بقاء
 ليس للذاهبين منا رجوع
 ومع هلال محرم يمدو داعيا أبناء العروبة الى المجد والحرية
 والكرامة :

ومن لى بعام لا يشمابه غيره
 أرى فيه اطفال البغاة تقلم
 وابخل أرض بالرجولة يقعه
 يضام الفتى فيها ولا يتيرم

اذير عيوني في الوجوه فلا أرى
 تتولى الدل مقبروا ولا ألتوم
 ليحزنني أن القنادل آثرت
 صمتوا وإن الزمهر لا يبتسم
 بيني وبينى لا تستكتوا عن حقوقكم
 اليس لكم منكم فم ينكمم
 لكم ثروة في الارض القا بها لكم
 وأربابها للفتر ب نهب مقسم
 لا فخر الا للذي هو ماجد
 ولا مجيد الا للذي يتكلم
 وما الحمر الا من اذا خيم لم يخن
 وإن قال حقاً فهو لا يتعلم
 وما بال أبناء العروبة أصبجت
 على الدل أشبتاً نشب وتهرم
 وما بال أبناء العروبة سلبت
 وقد كان عهدى انهما لا تسلم
 لالام قومي الضميد نفس تألت
 لك الويل يا نفس التي تسالم
 وهو مصيب للحياة مهما علت به السن بدعو الناس الى
 المتاع (١) هنا :

يا نفسي يا تنخدعي بالزاهد المنقطع
 دنياك هذى تحتسوى على النعيم أجمع
 تنعمى بخسيرها قبل دنو المصارع
 وبالحياسة ما صفت تمتعى تمتعى
 لكل باب تحسبين الخير خلفه اقرعى
 وانتهزى القرصة قبل فوتها واسرعى
 بالنسمات تبغين السؤال لا بالادمع
 وهو اشتراكى يدعو الى المساواة

لا يعرف المولم فى الحياة الا المولم
 ألف يعيش بائسا وواحد منهم

لم يماود هذا المعنى بصورة أقوى وأوضح :

ان من كدوا يزرعون البقاعا
 اشبعوا غيرهم وباتوا جوعا
 ربيع المالكون الارض عسفا
 ومضى كد الزارعين ضلعا
 يقفر الدهر ألف بيت ليقتنى
 واحدا من افراده جمعا
 لا ترى بين أو ليهم تزيضا
 كانوا للاموال أو منسا
 ومن العدل يكون نتساج الارض
 بين المحتشمين مقتسما

ان يبين الحق المحصن والباطل
منذ الدهر القديم نزاعا
ولقد ذكر الزهاوى كثيرا انه تتلمذ لابي العلاء وهو يقول
مخاطبا اياه فى قصيدة له من ديوان الاوشال :

وانى اكبر شئ فيك يعجبني
سخرية من تقاليد وعصيان
أنكروا فيك الحسادا وزندقة
وعلى ما أنكروه فيك بهتان
اننى تتلمذت فى بيتى عليك وان
أبليت عظامك ازمان وازمان
أصابنى فى زمانى ما أصابك من
حيف فما رد هذا الحيف انسان

وهكذا يصل الزهاوى الى أن يربط نفسه بالمعروف فى تشابه
حياتهما وما لقياه من الجماهير
وقد عارض الزهاوى قصيدة ابن سينا عن الروح فقال :

طارت بعز للسماء الا رفع
ورقاد كانت فيك ذات تخضع
قد كان مسكنها بجسمك ضيقا
واليوم تسبح فى مكان أوسع
الله أربنتها اليك وبعده أن
مكثت قليلا فيك قل لها ارجعى

وان كان لم سم عده الفصـيـده وقال : حال دون امامها مانع .

خدعوها بقولهم حسـبـاء
شعرها اللـيـل والجـبـين ذكاء
غرها ذلك النـسـاء فلانت
والغواني يغرن النـسـاء

ومن شعره الحكمي قوله :

ما اكبر الاخلاق في نفسي امرى
ان خاشعته الناس لم يخشوشن

وقوله :

ما قلت شـيـئا عـمـي
الا وعقـبـي عـمـي
أنا ابن عـمـي وحده
تنبئ عـمـي كـلـمـي
به اهتديت في شـيـئـي
مثـلـما في عـمـي
ربما كانت أمـور
أنا عـنـهـن عـمـي

دموع الزهاوى

لدموع الزهاوى قصة طريفة .. فقد عرف بأنه صاحب
دمعة .. وكان هذا مصدرا من مصادر متاعبه . ولطالما ردد فى
شعره قصة الدمع .. غير انه عاد فى آخر أيامه . فدعا الدمع
الى أن يقر فى العيون .. ويرجع على الاعتقاب :
يقول فى ديوان الكلم المنظوم :

الأياد مع انك ترجمانى
فبين للأحبة ما أعانى
اليهم فى فى فؤادى بعض شكوى
ى لسانك فيك أفصح من لسانى
ويقول :

ابك فان عبرة الباكين سلوى لهم
اليس ثمر الدم فى وجه الحزين يبسم
ويقول الأستاذ ناصر الحائى فى محاضراته عن الزهاوى :
« عرف ان دموعه طيبة ، وانه يبكى اذا ضجر وثار . ويبكى
اذا ابتهج وسر . وعرف عنه بعض مناوئيه ومفغظيه هذا ..
فراحوا يثيرونه ويشيعون عنه ما يبعث الفرح اليه حيناً ..
وما يفيظه ويبعث الثورة فى نفسه أحياناً . وظل يعيش فى

عالم خاص به - لاسيما في شيخوخته - ويرى أن قومه لم
ينصفوه . . .

وهو في قصيدة : دمعتي يكاد يصور هذه الحقائق كلها :

أنت أما أن تخففين مصيبي
دمعتي فأرجعي على الاعتساب
أنت لا تدرئين عني دائي
أنت لا تصلحين منه خسرابي
أنت لا تجدينني في شسقائي
أنت لا تنقذينني من عسائري
أنت لا تدفين وطاة شيبتي
أنت لا ترجمين عهد شبابي
أنت لا تقسدين أن تهينني
راحة أو تسكني أعصابي
أما أنت قطره مستبيلين
إذا سلت بقعة من ثيابي
أو تضيئين بين لحيتي البيضاء
أو تنبضين فوق الشراب
أرجعي فالحياة ليست تساوي
أن تخزي من حلق كالشمسهاب
لا تخزي وإن قضى أن تخزي
سبب قاهر من الامسهاب

ان نفسي لا ترضى ان بهونى
 كسجوني وان ملائ اهبابى
 يا ابنة الهم ان غرفتك القلب
 فلا تخرجى الى الابواب
 انا لثم اسأل الغيـون بكاء
 لتكونى على السؤال جوابى
 واذا ما هبطت بالرغم منى
 طال يادمعتى عليك عتبابى
 انا ان بكيت ابكى بشعرى
 ولقد اهديه الى الاحباب
 كل بيت منه اذا عـرود
 دمعـة تـرقـ على الاداب
 بين شعري وما يجيش بصدرى
 من شعور وشائج الانساب
 انا عنه محـدث وهو عنى
 وكلانا فى القول غير محاب

ويقول فى رسائله ان الـامى المعنوية اكبر من الـامى المادية .
 فانى كلما رأيت تقدم الشعب بطيئاً استولى على اليأس . وكلما
 انخدع بالباطل تمزق قلبى من الـاسى . . . وكلما خضع للظلم
 شـرقت بدمى .

الشعر المرسل

دعا الزهوى الى الشعر المرسل وحاوله على أساس انه جزء من دعونه الى حرية التعبير والقصيد . وفي نشره في حلال يونيه ١٩٢٧ قصيدة أطلق عليها اسم « بعد ألف عام » وقال انها قصيدة من الشعر المرسل الذي استحدثته في الشعر العربي مطلقا اياه من قيد القوافي . ذلك القيد الثقيل الذي تبرم به الشاعر وحببته الالفه الى السمع وما أرى لالتزامه من ضرر غير انه من تراث الماضي الذي بقي دهورا يشل الشعر في مجموعه . . فلا يمنحه حرية لايراد القصص وبث الاراء والوصف كما ينبغي . ولا يدلله في الموسيقى التي تجعل الشعر الا وهي الوزن . . وحسبك دليلا على أن البيت الواحد يتمثل به الكاتب فيلذه القارئ عارفا أنه شعر من غير أن يسأل عن موافقته لرديفه في القافية . .

ما أغنى أرجل غواني الشعر عن خلاخيل القافية . . وأغنى السمع عن سماع وسوستها التي تشوش عليه موسيقى الوزن ومن نكد الشعر العربي أن فيد القافية فيه أثقل منه في الشعر العربي . . بطيء التطور بحسب الحاجات العصرية التي لا يشبعها ذلك القديم الضيق واني لا أريد اليوم رفع القافية من كل اقسام الشعر فذلك عسير على الاذواق التي ألفتها منذ

مصور طويلة وأحقاب بعيدة . . ولكن أي بأس في أن يوجد نوع من الشعر المرسل كما يوجد المقيد . وإن يكون هذا النوع خاصا بالقصص والوصف والجدل والحكم حيث ينبغي أن يسير على صوت عوسيفي الوزن حرا طليقا في مجال واسع لا يرسف في قيوده مثقلا .

وقد نشرت لي المؤيد في مصر قبل أكثر من عشرين سنة قصيدة بعنوان الشعر المرسل ونشرت لي جريدة في العراق قصيدة أخرى قبل سنتين تقريبا فقامت حول هذه قصيدته المذهظين على القديم . وكان لي يومئذ انصهار كما كان لي خاذلون . وقد رددت على نقد الناقدين يومئذ بسلسلة مقالات أثبت فيها أنهم كانوا على باطل . .

والواقع أن الزهاوي حاول أن يكسب انصارا للشعر المرسل ولكنه هو شخصيا رجع عنه بعد ذلك إلى النظم والقافية بعد أن تبين أنه لا يرضى إلا القليل . ولعل هذا النموذج الذي نورد من قصيدة «بعد الف عام» تبين مدى نجاح التجربة .

حكومتهم شبه اشتراكية فما تنعم بأفراد وتشفي جماهير
يمشون أحرارا فليس مسيطر عليهم سوى الحكمل
أحاطوا بأسرار الطبيعة خبرة

فلم يبق عنهم من نوايسها خافي
وقد عرفوا عفو الغريزة كل ما له نحن كنا بالروية نعرف

وإذا ما أرادوا السير والجر واسع
 وأما أرادوا المكث فالارض مبهمة
 يرى بعضهم بعضا ويسمع صوته
 وبينهما الارض القوية تفصيل
 ويقرا كل منهم فكر غيره
 قديرا فلا تخفى عليه السرور
 وقد كان الزهاوى في هذا يقلد ولز وجول فيرون وغيرهم
 من المتنبئين .

بين الزهاوى والرسافى

عاصر الزهاوى ثلاثة شعراء فى العراق : الرسافى والكاظمى والجواهري . . . ولكنه ارتبط فى ذهن الكثيرين بالرسافى . ولعل مرجع ذلك الى أنهما كانا كقرسى رهان فى ميدان واحد : وقد وصف كل منهما بالجرأة على المعتقدات .

والواقع أن الزهاوى ولد سنة ١٦٨٣ توفى عام ١٩٣٦ وعاش ٧٣ عاما والرسافى ولد عام ١٨٧٥ أى بعد الزهاوى باثني عشر عاما وعاش حتى سنة ١٩٤٥ وبلغ من العمر سبعين سنة .

وقد قيل كثيرا أن هناك خلاف بينهما ولكن الزهاوى قال غير هذا فى بعض قصائده ان الرسافى بالنسبة له كهسارون الى موسى وقدم نفسه كعادته

وانى بمعسوف لاأعتر انه

أخو ثقة والحسر يعتز بالحسر

كلانا يريد الحق فيما يقوله

وانى واياء الى غواية نجرى

فخذ بيدى اللهم فى كل دعسوة

وهذا أخى معروف فأشديد به أزرى

كما أشار الزهاوى فى رسائله (يناير ١٩٤٧) ومجلة
 (الكاتب المصرى) بقوله : أما النزاع بينى وبين الاستغلاء الرصافى
 فليس اليوم كما يكبره المرجفون فكثيرا ما نتلاقى كصديقين .
 ومعنى هذا ان هناك خلافا كان قائما فى فترة ما . ولمست
 اعرف وجهة نظر الرصافى فى هذا الخلاف كما لم يصل الى
 أن الرصافى رثى الزهاوى بعد موته والواقع أن هناك فارق
 وخلافا شديدين بين منهج كل من الشعاعين ومنهجهما فى
 الشعر والحياة . ولعل الزيت حين وصفت الزهاوى بأنه كان
 فريه من المعرى وأن الرصافى كان فريه من أبى نواس كان
 يعكس الحقيقة . . فقد عرف أن الرصافى عاش حياة عارئة
 جريئة كلها متع وخمر وجراة على التقلب . . بينما لم
 ذلك الزهاوى الذى كان مريضا . . وكان حريصا على الاحتفاظ
 بمظهر الوقار والكبرياء ليترك فى نفوس الناس دائما صورة
 الدعاة وأصحاب الرسالات .
 وما قاله الزيت أن الرصافى (١) يميز بأصراحة الجمال
 والاستهتار البالغ . وأنه هو نواس العسراق فى حين كان
 أسناده الألوسى يريد أن يحلف معروفا الكرخى الصبوسى
 المعروف . ولعل اضطراب حياة الرصافى يرجع الى أنه لم يجد
 ما كان يطمح فيه من مكان فى عهد فيصل مما دعاه الى أن يعلن
 الخصومة على الملك ووزرائه

ولكن هذا لا ينقص من قدره كشاعر . يضممه النقاد بين
 الأوتار الخمسة للشعر العربي الزهاوي والوصافي وشوقي
 وحافظ ومطرب (١) وكان الدكتور طه حسين قد مضى بأمانة
 الشعر التقليدي للعراق بعد وفاة شوقي (١٩٣٢) وقد علق
 الزيات على هذا بأن الزهاوي يفضل أن يكون في ساحة المجددين
 على أن يكون في طليعة المبعدين .
 وقيل إن الفرق بين الزهاوي والوصافي أن الزهاوي
 أدبته عالم والوصافي فتان أديب .

الزهاوى فى رأى مؤرخيه

يروى الاسندذ الزيت أن الزهاوى كان يحضر فى آخر أيامه ندوة السيد صبحى الدفتري محفظ بعزاز فى داره ضخمى الجمعة من كل أسبوع يحضره الزرراء والزعماء والادباء والقادة . . فيكون لكل طائفة منهم حلقه وحديث . . ولكن الزهاوى كان اذا تكلم أصغت اليه الدار وتحلقت عليه الندوة لان جميلا كان آية الله فى فكاة الطبع وظروف المحاضرة وحلاوة الدعابة ورقة العبث . . وكان له فى لقاء النادرة لهجة واشارة وهيئة لا يبرح سامعها مستطار القلب نسوان المشاعر من غرابة ما يرى وطرافة ما يسمع .

ولعل ابلغ مظاهر حياته هو ذلك القلق والتشاوم والتملن ولا يشعر بالطمأنينة ينطلق يشكو دائما كل من يلقيه عن جمود الامة واغفال الدولة وكيد الخصوم والحاح المرضى . . وكانت الحيوية تقبض من كلمته . . والعزيمة تصطرم فى نظراته . . وهو كتلة من الاعصاب القوية المستدودة (١)

١ - وحى الرسالة ٢ الصادر عام ١٩٤٤

١ - الزيت - الرسالة ١٩٤٧

وهو بين الشكوى والزهو والطموح والقلق والتمرد يعيش حياته

يقول الزيات : كان الزهاوى يهزج بأغساريد الفجر على ضفاف دجله فتتردد أصداؤها الموقظة في ربوات بردى وخمائل النيل وسواحل المغرب . وأدب الزهاوى وأمثاله هو الذى أوصل القلوب العربية فى مجاهل القرون القديمة بخيوط الهية غير منظورة ولولاها لما تهيأ العراق هذه الزروة .

وانه ساعد على انهاض العرب بوثوب فكره . . وعلى احياء الادب بوميض روحه .

وقد قال بعض مؤرخيه انه : راوية لا يبارى . . فكان صدره يعى من الاخبار والنكات والحوادث ما تضيق دونه المجلدات وكان له فى الرواية أسلوب خاص يأخذ بمجامع سامعيه .
وانه كان فى أخريات أيامه يتردد على قهوة معروفة فى بغداد فيلتف حوله تلاميذه ومريده ويستمعون الى رواياته الشائقة وأحاديثه الممتعة ونوادره المضحكة ولا يقاطعونه ولا يجرمون على معارضته .

وقد عنى بعض المستشرقين والكتاب الاجانب بآثاره وكتب أمين مكتبة الفاتيكان الكبرى : ان ما يحتوى عليه ديوان الاوشال هو أروع ما قرأناه فى الشعر العربى العصرى . وكتب المستشرق الدكتور ودمر الالماني ترجمة حياته . وترجم قصيدة ثورة فى الجحيم وخمسين قصيدة من اللباب و٥٣ رباعية الى الالمانية وكتبت عنه بعض صحف برلين مقالات وابحاث .

وجملة فول نقاده ومؤرخيه : أنه حصل لواء التجديد في الشعر العربي ودعا الى الاخذ بكل جديد من الاراء والافكار .
 وتحميل في سبيل ذلك كل اذى فقد كانت بيئة العراق جمود وظلام وقد غمرتها الامية وطمى عليها الجهل . (١) وقد ألف الناس الخضوع لجبروت الحكم والخضوع لبالي العادات .
 وما أضفاه المشعوذون عليها من أثواب التقديس والتعظيم . .
 وكان أي واحد يخرج على بعض التقاليد يتهم بالزندقة والكفر أو يتحدث عن شيء مما ابتكره الغرب حتى يرمى بالبدعة والمروق في الدين .

وقد نقد الاستاذ سليم طه زباعياته . . وقال انها ركيكة المعنى مهلهلة الاسلوب تعوزها الصناعة الفنية وتنقصها دقة التعبير الى جانب السبك في النظم وحسن اختيار الكلمات .
 ومن جماع ما يقال أن القلق كان أبرز معالم شخصيته . .
 وان ارتفاع السن والحياة الطويلة أعطته شيئاً من القداسة .
 وان عواطفه وآرائه تبلورت بعد سن الأربعين . وانه لم ينظم شعراً في الثورة العراقية وان والدته هي التي أورثته الصلابة ولعناده . وانه كان يحب المدح والاطراء ويضيق بالنقد ذرعاً . .
 وانه نأثر بأحداث العراق والبلاد العربية وانه عاش حيساته شاكياً ضجراً قلقاً . وكان التشاؤم والتعطيب والضيق والشكوى من أبرز مظاهر حياته . . وقيل ان غلله وأمراضه التي لازمته طوال حياته لها أثرها في اتجاهاته وكانت مصدر

١ - من مقال في مجلة يونيه ١٩٤٩

ولمجد وجزعه واكتسابه وقالوا ان فيه تناقض واضطراب وعاطفته تغلب عقله أحيانا . ولا يستطيع أن يطوى صدره على الاوهام الخاصة . . وكان يحس بأنه دون قدره وان لم يعط ما كان خليقا به .

وقد سبق الزهاوى جيله وتأثر بالتيارات الفكرية وعاش في مرحلة انتقال واضطراب بين الدين والوطنية وبين العثمانية والحرية وبين الاستعمار والاستقلال وبين الترك والعرب . . وأبرز ما فيه ثباته على ما دعا اليه . وقد عرف « بيلي » فقد كانت (١) حلمه الذي صبا اليه وأمانيه التي حط عندها رجاله فهي في في الحقيقة وطنه العراق وهي فتاة أحبها أيام كان في الاستانة .

وقد أطلق روفائيل بطى على الزهاوى اسم « فيلسوف بغداد في القرن العشرين » وانه لم يحس في حياته بالتقدير من وطنه ولا من الادباء .

وقال نقلا عنه : ان شدة حقه على المجتمع يرجع الى علة لازمتها طوال حياته . والمرء شديد الانفعال في مثل هذه الاحوال اذ يرى نفسه رازحا تحت ثقل الآلام حـالة ان غيره ممن ليس أجدر منه بنعم الحياة يتمتع بها لذ وطاب ويسير في الارض مرحا وعليه نجد شعره ضربا من الفلسفة الاجتماعية وقد أدركته علة في النخاع الشوكي وهو في منتصف العقد الثالث من عمره .

فتبعتهما علل أخرى لم يكن الشلل الا بعضها . لهذا كان يسير دائما راكبا وبرفقته خادمه الامين . . فاذا ترجل توكا عليه حتى يصل الى مجلسه .

وكان الزهاوى يميل الى البساطة فى كل شىء ويتجنب كل كل ما يشق عن العظمة والعطرسه وكان بيته رمزا على بساطه عيشه . وكانت حديقة منزله على صغر مساحتها دليلا على حسن ذوقه وشدة ميله الى الطبيعة .

وكان الزهاوى يبسط آراءه بكل صراحة ولا يعبا بانتقاد يوجه اليه وكان شديد الانفعال ينتقل من الغضب الى الفرح فى طرفة عين . ويقول ان الحياة أقصر من أن يضيعها المرء فيما يسوء .

وكان الزهاوى شديد الولع بمشاهدة السينما ويحب مصر وأدبها وفنها وتمثيلها وغنائها .

ويقول اسماعيل أدهم فى دراسة قصيرة له عن الزهاوى انه تأثر بشبلى شمبل فبعد أن كان يؤمن بالدين أثارت هذه الفصول فى نفسه روح الجرأة على المقدسات وانه تأثر بالوهابية تأثيرا عكسيا فرد على دعائها فى كتاب بعنوان : الفجر الصادق فى الرد على منكرى الكرامات والخوارق .

وان رأيه فى المرأة هو رأى أفلاطون الذى يرى ان المرأة

وان كانت أقل في الاستعداد الطبيعي الا انها تقرب من
استعداد الرجل .

وقال اسماعيل أدهم ان أبرز معالم شعر الزهاوى اتجاهه
العقلى فى الشعر بعيدا عن الخيال والتأمل الفلسفى وانه حمل
الشعر رسالة العلم . وقد جمع بين العقلية العلمية مع القدرة
على النظم . وكان فى احساسه الشعور بسبق الزمن .

الادب العراقي في عصره

كان العراق في العصر السابق لاعلان الدستور العثماني . . يعيش في جو مظلم حانق من دسائس السلطان عبد الحميد . لم يكن هناك من يجروا على كلمات الحرية والاستقلال وفي خلال هذا العهد هاجر جميع احرار الفكر الى مصر وتركوا البلاد التي تحكمها تركيا العثمانية . . واكتفى الزهاوي بأن ينظم نفثات قلبه ويرسل بها الى المؤيد والصحف المصرية مهاجما عهد عبد الحميد ومطالبيا بالحرية والسفور . فلما أعلن الدستور سنة ١٩٠٨ قوبل ذلك في العراق بالفرح الشديد والتهليل املا في الفرص التي سيتيحها الدستور للناس في حرية القول والرأى والنشر . وكان الزهاوي في مقدمة الذين اهتزوا لهذا الحدث الكبير .

وبدا الادب العراقي يدخل في دور جديد حيث انبعثت منه حركة أدبية ضخمة . كان قوامها مدرسة الالوسي في بغداد وعميدها محمود شكرى الالوسي . ومفتدى الشيخ أمين غالى في البصرة ومكتبه دير الادباء الكرمليين ببغداد .

كما حافظت النجف على استقلالها الادبي وتراثها الروحي فما زالت دار علم ومدرسة للثقافة فيها أسر قديمة توارثت

طلب العلم والادب خلفا عن سلف وأساتذة ممتازون في المنقول والمعقول ولها مكتبات غنية بما ينشده الباحث والاديب (١)
وقد أقامت الطبقات الادبية التي ظهرت في هذا العصر ادبها على أنقاض أدب النجف الطبطبائي والفحام والنحوي والاعيسم . ومن شعراء الحلة جمهور الحلي ومحسن الخضري وسعيد الحبوبى .

وقل في هذا العصر المدح في الشعر وكثر الوصف . واتجه الشعراء الى وحدة الموضوع في قصائدهم بدلا من تعدد المواضيع . وشاع الشعر السياسى والاجتماعى .
ولم تنس المراق ادبها التقليدى الرائع : الادب العلوى الحسينى الذى يحمل دعوة الكفاح والجهاد . . ويرسم صورة البطولة والدفاع عن النفس والعقيدة وذكر امجاد الاسلام والعراق ولعروبة وقد كان للنهضة الادبية الحديثة في العراق اثره الواضح فى القصائد والملاحم الجديدة التى تحدثت عن التضحية والبطولة .

ولم يلبث العراق بعد قليل ان ثار ثورة عارمة مجيدة تحدث عنها القاصى والدانى سنة ١٩٢٠ كانت بداية عصر التحرر والوطنية . . انتهت معها معالم الاستبداد العثمانى وظهرت القومية العربية جهيرة حية واضحة . وبدأت مرحلة

١ محمد رضا الشيبينى : بحث فى المجمع اللغوى ٢٠ ديسمبر

سنة ١٩٤٨

جديدة من مراحل الكفاح لمقاومة الاحتلال البريطاني وإرساء قواعد حياة وطنية جديدة قوامها الدستور والنيابة والعهد الجديد الذي كان على رأسه فيصل ومن بعده غازي وفي خلال هذا التاريخ الطويل كان الزهاوي والرصافي والجواهري والكاظمي أبرز شعراء الفترة .

وقد كانت مظاهر الادب العراقي كما صورده الاستاذ الشبيبي جزالة عربية في الالفاظ ومحاكاة للقدماء وجمود على الفنون الشعرية المألوفة حتى جاء الزهاوي والرصافي فجلدا الشعر ودفعاه دفعة قوية الى الامام حيث حرراه من بعض قيوده فاتجه الادب العراقي الى الواقعية وكان هذا تطورا طبيعيا حيث زالت نظم مألوفة في الحكم وحلت بدلا منها أخرى استتبع تغيرا في أساليب الفكر والنظم والكتابة .

وقد كان شعر الزهاوي والرصافي والكاظمي على الاختلاف البعيد في اتجاهاتهم واساليبهم ترجمانا لحياة العراق وما يجيش في نفوس أهله وما وقع فيه من أفراح ومآسى . ومن ناحية اللفظ يتجلى في الشعر العراقي رصانة في مبناءه وصفاء ديباجة وبيان مشرق . . ولعل شعرا في العالم العربي لم تقم فيه دعوة قوية الى التجديد والتطور والتعامل على القديم مثلما حدث للشعر العراقي .

يقول الدكتور زكي مبارك أن الادب العراقي الحديث انتفع بثلاثة ينابيع : أولهما الادب الفارسي . . والادب التركي والادب المصري هذا بالإضافة الى الادب العربي القديم .

وقد نظم الزهاوى الشعر بالفارسية يوم ذهب الى ايران
للاشتراك فى احياء ذكرى الفردوس .

وقد عرف الشعر العراقى الشاعر الفيلسوف فى الزهاوى
والشاعر الاديب فى الرصافى وفى الشاعر العربى التقليدى فى
الكاظمى وفى شعر الموشحات فى الجببى .

ويتميز الادب العربى بالحديث عن الامة العربية ويرسم
صورا كثيرة من الشام ومصر .

فكثير من أدباء العراق عاشوا فى مصر . والاخوانيات من
ابرز مظاهر الادب العراقى فهم يتراسلون بالرسائل والقصائد
وقال زكى مبارك أن شعراء العصر فريقان . . فريق يترسم
خطى شعراء الجيل فى الماضى القريب ويجسرى على سنتهم
المعروف فى المذاهب والاساليب مع نىء من التجديد : أحمد
الصادق والحيوبى واليعقوبى والجواهري والمقلد والخطيب
والجعفرى وشعراء الرابطة العلمية الادبية فى النجف والفريق
الاخر من شعراء الشباب الذى يميل الى مجازاة الغربيين ويحاول
أن يتعاطى النظم على طريقتهم المعروفة وعددهم قليل .

وللادب العراقى الحديث فى مراحل فترات من اظهرها
جنوحه الى التشاؤم والشكوى . ووصف مظاهر البؤس
والحرمان فى كثير من الاحيان ومن مميزات نزوع ظاهري الى
العنف فى مقاضاة الطبقة الحاكمة والدفاع عن حقوق الطبقة
المحكومة .

وفى ميدان النشر طائفة من الباحثين والعلماء المنقطعين

للدراستات الفكرية يؤلفون ويدرسون وينشرون ولهم مؤلفات
وتصانيف أبحاث منهم بهجت الاثرى ومصطفى جواد وعباس
غزاوى وجواد على وأحمد سوسة وكوركيس عواد

وقامت الصحافة العراقية بدور ضخم فى سبيل الحركة
الوطنية العراقية وكان لكتابها جهاد ملحوظ ويفسول زكى
مبارك أن المقالة القاسية فى جريدة عراقية .. فى زلزل
احساس الجمهور أعنف الزلزال . وقد أغلقت جريدة عراقية
لأنها كتبت مقالا عنوانه الفرات الهائج لأنها تناست الفرق بين
الهياج والطفيان .. فالهياج يضاف الى السكان أما الطفيان
فيضاف الى الماء .

وهكذا يبدو الزهاوى بعيد الاثر فى أدب العراق . اشترك
فيه أكثر من خمسين عاما فى ثلاث عهود .. قبل الدستور
وبعده وفى عهد الاستقلال والوطنية . وناصح عن العراق والعرب
والحرية الفكرية وطالب بتحرر المرأة . وهز قوائم المجتمع
الغربى بدعوته الحرة وجرائه الخالصة واندفاعاته المتحررة فى
تجديد نظم الشعر وتوجيهه من التقليد والعنسية باللفظ ..
وموضوعات الشعر القديمة الى الاقتحام فى ميدان السياسة
والاجتماع والاختراعات الحديثة وحمل لواء التجديد .

وقد واجه المحافظون الزهاوى بالنقد وقاوموا دعوته وأسلوبه
ولكن الزمن تغير وأصبح الزهاوى مظهرا واضحا من مظاهر
الادب العراقى وقمة من قممه ومفخرة من مفاخره . فقد كتب
للادب العراقى صفيحة مشرقة ومثل فى الادب العربى المعاصر

زاوية حية .

وحق ما قال الزهاوى أنه سباتى اليوم الذى يدرك فيه المؤرخون مدى عظمة الدور الذى قام به وفى العراق اليوم تلاميذ الزهاوى وشباب العراق الذين غنى لهم الزهاوى سنوات وسنوات يسировن على نهجه ويؤمنون به .

واليوم وقد مضى على موت الزهاوى بضعة وعشرين سنة فقد بطلت الخصومة وزال الخلاف وآمن العراق بأن الزهاوى كان علما من أعلام الحرية فى تاريخه وأنه دفع العراق الى الامام بقوة . . وأن هناته هى هنات البشر التى لا تتخلف مع الطبائع الانسانية لاسيما بالنسبة للزمن الذى عاش فيه وما كان فيه من ظلام واستبداد . وبالنسبة لحياته الطويلة المديدة . .

واليوم نرى الزهاوى وهو يعثل ركنا قويا من أركان الادب العربى المعاصر وجانبها هاما من جوانبه بالاضافة الى زملائه واترابه شوقي وحافظ ومطران والرصافى والكاظمى . واليوم حين أتم هذا البحث أذكر انى أعددت بحثا عن الزهاوى سنة ١٩٣٩ وأنا فى مطلع الحياة الادبية وقد قلت فى مقدمة هذا البحث : ما عشقت فى حياتى قدر رغبتى فى الكتابة عن هذا الرجل الشاعر الذى يغلب سحر كلمة على روحى فيردنى عن الحياة الى أجواء تسمو وتسمو حتى تبلغ عنان السماء .

وفى سنة ١٩٥٤ كتب عدد من الدراسات عن الأدباء

المعاصرين (١) من بينها دراسة عن الزهاوى أنقل منها ما قد يكون مكملًا لهذه الدراسة من جوانب حياته

ظل الزهاوى سابقًا لعصره متهما بين أهل جيله وبلده بالزندقة والجنون والالحاد . وقد منحته العمر الطويل وتقلب الزمن حيث عاش الى سن السبعين مسحة من القداسة الرائعة خاصة بعد ان تخطت العراق مرحلة الانتقال . وقد اضطر في ابان محنته الى بيع معظم كتبه ولعل دفاعه عن حرية المرأة متصل الى حد كبير باثر المرأة في حياته وفنه وقد أثرت عنه في ابدن اقامته في استانبول مغامرات وضميمة حيث أطلق لهواه العنان بعد أن فارق بيئة العراق . ولكنه على ما طبع عليه من قلق لم يعرف الحب المديد أو يالف العشق الطويل المدى . ويبدو أن الزهاوى في الحب أشبه بشوقي فهو على طبيعته المتكبرة لا يصل الى أعماق الحب ولا يسبر غوره وهو ليس من الروحيين الغزليين وأقرب الى الواقعية الادمية ولا تجدد عنده تلك الحرارة الدافقة في العاطفة

ولعله وجد في مصر أيضا سبيلا الى عاطفة أو حب . وهو في كل أحواله عن المرأة والدعوة الى تحريرها ليس الادعية بالتعلم . . اذ انه لم يستجب لذلك في حياته الخاصة . فقد كان الزهاوى زوجا وكان زوجته متحجة . وقد وصفت هذه الحياة بانها كانت هادئة مرضية لنفسه . وقد تزوج الزهاوى

فى سن مبكرة . وامكن ان تهيم له زوجه اسباب الراحة
والنفسية على ما به من شئود . . اذ كانت خير معز لى فى المحن
الفكرية والسياسية التى تعرضت لها . . وفى خلال سنوات
مرضه باعصابه فقد كانت تعنى به عناية الام بطفلها وتهتم
بهدامه وتنظيم مكتبته وقد سافرت معه ابان سفره الى مصر
وسوريا . ومن أبرز معالم حياة الزهاوى الخاصة انه لم يوزق
أولادا ولعل ذلك كان مصدرا من مصادر اضطرابه النفسى .

وقد وصفه بعض النقاد بأنه ناظم وليس بشاعر وقال عنه
النقاد يوسف جورج : انه ليس شاعرا . اذ أن الشاعر يعتمد
على العاطفة والخيال قبل العقل . والزهاوى كان لا ييسالى
المواطف والخيال أبدا .

وبعد فالزهاوى قوة أدبية كبيرة فى تاريخ العراق الذى أحبه
وفى تاريخ الادب العربى المعاصر . . وهو علم من أعلام الفكر
والشعر والفلسفة العربية الحديثة يمثل جانبا واضحا هو
الحرية الفكرية والتجديد والسعوة الى الإصلاح الاجتماعى . .
بحمده الله .

أنور الجنيدى

الشركة العامة للبترول

١٤ شارع سليمان باشا القاهرة

تعلن الشركة عن مناقصة عامة لعمليات نقل مهمات
ومعدات - لمدة عام - ويمكن الحصول على دفتر
الاشتراطات من إدارة العمليات بالشركة نظير دفع رسم
قدره ٢ جنيه - اثنين جنيه تقبل العطاءات حتى ظهر يوم
الاثنين ٢٩ فبراير سنة ١٩٦٠

الدار القومية للطباعة والنشر
شركة ذات مسئولية محدودة
٣٠ شارع منصور - القاهرة
ص.ب ٢٣٩٨
